نتائج الأفكار

في شرح

سيد الاستغفار

الشيخ نشأت كمال

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله تعالىٰ من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ٢١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

وبعد، فهذه رسالة صغيرة المبنىٰ عظيمة المعنىٰ، تتعلق بعمل عظيم من أعمال القلوب، وهو الاستغفار، وتتعرض لشرح حديث صحيح هو أعظم صيغ الاستغفار وسيدها، كما سماه النبي ﷺ.

وقد قام العلامة شمس الدين السفاريني الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ بشرح هذا الحديث شرحًا تفصيليًّا، وزينه بنقول جليلة عظيمة عن كثير من أهل العلم، وقد سماه مؤلفه : «نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار».

وقد قمت بقراءة الكتاب والتعليق عليه وتخريج أحاديثه تخريجًا مختصرًا، وأتيت بتعليقات مهمة لأهل العلم ـ ليزداد بها الكتاب حُسنًا ـ كشيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم والشيخ ابن عثيمين رحمهم الله جميعًا.

وغرضي من التعليق علىٰ هذا الكتاب وإخراجه بهذه الصورة الميسورة أن يعم النفع به، وأن يطير ذكره بين المسلمين ليقفوا علىٰ المعاني العظيمة التي تضمنها هذا الكتاب علىٰ صِغر حجمه، عسىٰ أن ينتفعوا بها.

وكتبه

أبو يعقوب المصري

القاهرة (١٤٢٩ هـ)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله الحليم الغفار، الكريم الستَّار[(١)]، غافر الذنوب والأوزار، وساتر العيوب والأقذار، لا تضرُّه المعاصي وإن عظُمت، ولا تنفعه الطاعات وإن كثرت؛ فهو العزيز الجبار، أعان علىٰ الطاعة وأثاب عليها، وقدَّر المعصية وعاقب عليها؛ حكمةً منه بهرت العقول وحيرت الأفكار.

خلق الخلائق بقدرته، وأودع فيهم القُوىٰ والملكات بحكمته، وسلط عليهم الأعداء بمشيئته، وجعل فيهم دواعي الخير والشر بإرادته، فمنهم شقيٌّ وسعيد، وفُجار وأبرار، ومؤمنون وكفار، وأخيار وأشرار.

ابتلاهم بالمعاصي والذنوب، وفتح عليهم التوبة لمن يتوب، ودعاهم إلىٰ الإقالة والرجوع عن العيوب، وحثهم علىٰ الإنابة والاستغفار.

فكم في طيِّ هذه التقديرات من الحِكَم الباهرة، والمصالح الباطنة والظاهرة، حكمة بالغة، وقدرة ظاهرة.

فدع عنك التعاظم، واجنح إلىٰ الانكسار، وَخَلِّ الفخر بالطاعة، والزم أعتاب أبواب الذل والافتقار؛ فإنه الباب الذي لا يصلحك سواه، ولا يحميك سوىٰ حماه؛

(١) «الستار» ليس من الأسماء الحسنىٰ، فلم أره في شيء من الكتاب والسنة، ولم أر من ذكره، والصواب «الستير» وقد اختلفوا في ضبطه، فقيل: «السَّتير» بفتح السين وتشديدها وكسر التاء وتخفيفها، وهو الصواب، وقيل «السّتير» بكسر السين والتاء وتشديدهما، وفيه نظر.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فما لك والغنىٰ؟! فإياك وإياه؛ فإنه وصف مولاك القهار؛ «**فالكبرياء رداؤه، والعظمة إزاره، فمن نازعه واحدًا منهما؛ كبَّهُ في النار**»(٢).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، مَنَّ بالتوبة بعد الحوبة، وندب إلىٰ الإقالة بعد ارتكاب الضَّلالة؛ فقال في كتابه المكنون: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وحثَّ علىٰ الاستغفار دعاية وإخبارًا؛ فقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾.

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، نورُ الأنوار، ومنبع الهدىٰ، وينبوع التُّقىٰ، ومعدن التَّقوىٰ، وسِرُّ الأسرار(٣).

---

(٢) كما روىٰ مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه» (١٨/ ١٧٣) عن أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «قال الله عَزَّ وَجَلَّ: العز إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني بشيء منهما عذَّبْتُه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «رسالة العبودية» ص١١١: فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية، والكبرياء أعلىٰ من العظمة، ولهذا جعلها بمنزلة الرداء، كما جعل العظمة بمنزلة الإزار.

(٣) قوله: «نور الأنوار وسر الأسرار» من المصطلحات المتعارف عليها عند الصوفية، ويقولون: إن القلب إذا صفا من الأكدار: مُلئ بالأنوار والأسرار. وقد وصف الله عَزَّ وَجَلَّ النبي ﷺ بأنه نور في عدة مواضع من كتابه، ووصف كتابه بأنه نور، ولكن هذه الكلمات التي استخدمها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، وهيٰ: «نور الأنوار وسر الأسرار» من التعدي في مدح النبي ﷺ والثناء عليه والإطراء المبالغ فيه والذيٰ نهيٰ عنه في قوله: «لا تُطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم إنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله» [رواه البخاري (٣٤٤٥) عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، والله أعلم.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «فتح الباري»: قوله: «لا تطروني» بضم أوله، والإطراء المدح بالباطل تقول أطريت فلانًا مدحته فأفرطت في مدحه. وقوله: «كما أطرت النصارىٰ ابن مريم» أي في دعواهم فيه الإلهية وغير ذلك.

وانظر مثلًا لما يقوله البوصيري في «البردة»:

يـــا أكـــرم الخلـــق مـــا لي مـــن ألـــوذ بـــه ... ســـواك عنـــد حـــدوث الحـــادث العمـــم

=

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أرسله بين يدي السَّاعة علىٰ حين فترْةٍ من الرُّسل، وقد طبَّق الأرضَ الظلمُ والجهلُ، فانقشع الظلام، وطلعت شمس الرِّسالة علىٰ سائر الأقطار، وتلألأ النور بعد أن تلا آيات النور، وزاد الحُبُور[٤] بعد أن محق بالحروب من الظُّلْم البُحُورَ، ونَما السرور بعد أن رتعت في جيف أهل الكفر النسور، وانمحت دولة الأكاسرة، والقياصرة، والهياطلة[٥]، وعبدة الكواكب والأحجار.

صلىٰ الله عليه وسلم، وعلىٰ آله وصحبه وأصهاره، وأحبابه وأنصاره وأحزابه، الأئمة الأخيار، والأتقياء الأبرار، صلاةً وسلامًا دائمين ما دام الليل والنهار، وما تحلت بنشر عطرهم الأسفار، وتفاخر بنشر ذكرهم أهل الآثار والأخبار.

أما بعد:

فيقول العبد الفقير لمولاه العليِّ، محمدُ بن أحمد السفاريني الحنبلي، عامله الله بلطفه الخفيِّ والجليِّ:

قد سنح في خَلَدي[٦] أن أشرح حديث سيد الاستغفار؛ لما فيه من بدائع الفوائد وودائع العوائد، التي لعلها لا تخطر علىٰ قلب غالب من يدعو بهذا الدعاء، ويستغفر مولاه بهذا الاستغفار، الذي جمع فروعًا لكثرة ما فيه من الفوائد والأسرار،

=

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

فكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من ... لولاه لم تخلق الدنيا من العدم

(٤) السرور وطيب العيش، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ [الزُّخرُف:٧٠].

(٥) جماعة من الهند والترك.

(٦) يعني في فكري وخاطري.

جعله النبي المختار سيد الاستغفار.

وسميته بـ «**نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار**».

وأحببت أن أقدم أمام المقصود مقدمة تشتمل علىٰ عدة مقاصد؛ فأقول:

المقصد الأول

في ذكر الحديث ومن أخرجه من الأئمة وترجمتهم

وترجمة الصحابي رضي الله عنه

مطلب

ذكر الحديث ومن رواه

أما الحديث؛ فهو رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي والنسائي عن أبي يعلىٰ شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال: «**سيدُ الاستغفار: اللهُم أنت ربي [وفي لفظ: أن يقولَ العبدُ: اللهم أنت ربي] ، لا إلهَ إلا أنت، خلقتني، وأنا عبدُك، وأنا علىٰ عهدكَ ووعدكَ ما استطعتُ، أعوذُ بك من شر ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبوءُ بذنبي؛ فاغفرْ لي، فإنهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت، مَن قالها من النهار مُوقنًا بها، فمات من قبل أن يُمسيَ؛ فهو من أهل الجنة، ومَن قالها من الليل مُوقنًا بها، فمات قبلَ أن يصبحَ؛ فهو من أهل الجنة**».

مطلب

في ذكر تراجم رواة الحديث، وراويه الصحابي

واعلم أن **موضوع الحديث**: ذات رسول الله ﷺ؛ من حيث إنه رسول الله ﷺ .

وحدُّه: هو علم يعرف به أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وأحواله.

وغايته: هو الفوز بسعادة الدارين.

فدخل في قولنا: «**وأحواله**»: تقريره؛ بأن يُفعل بحضرته فعل فيقره، وصفاته عليه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الصلاة والسلام؛ من كونه أكحلَ العينين أَزَجَّ الحاجبين(٧).

أما ترجمة الصحابي؛ فهو: أبو يعلىٰ، شداد بن أوس الأنصاري، ثم الخزرجي، ابن أخي حسان بن ثابت رضي الله عنهما(٨).

---

(٧) زَجَجُ الحاجبين: دقتهما وطولهما وسبوغهما. وقد جاء وصفه ﷺ بذلك في حديث أم معبد الطويل، وقال ابن ناصر الدين الدمشقي رحمه الله في «جامع الآثار في السير ومولد المختار/ تحقيقي»: و«الأزج»: المقوس الحاجبين في طول وامتداد إلىٰ محاذاة آخر العين مع الدقة والسبوغ. وقال أبو الحسين بن فارس: والزجج دقة الحاجبين وحسنهما.

قال: وقولها «أقرن»: يشابه ما قدّمناه في البشارات العيسوية به ﷺ، وهو المقرون الحاجبين ومعناه معنىٰ الأقرن وهو المتصل رأسي حاجبيه مما يلي أعلىٰ الأنف وهو غير محمود عند العرب.

ووصْفُه ﷺ بالقَرَن في هذا غير المعروف من صفته ﷺ قال أبو عبيد: ولم نسمع بهذه الكلمة في شيء من صفته ﷺ إلا في هذا الحديث إنما صفته في الحاجبين البلج. انتهىٰ.

ونفي القَرَنِ في صفته ﷺ هو الصحيح كما جاء في حديث هند بن أبي هالة وغيره، قيل:ويمكن الجمع بينهما علىٰ أنَّه لم يكن بالأقرن ظاهرًا ولا بالأبلج إذا تُحقق بل كان بين حاجبيه فرجة يسيرة لا تبين اتصال شعر الحاجبين فيها إلا لمن حقق النظر إليها كما ذكر في صفة أنفه ﷺ فقال: يحسبه من لم يتأمله أشم، ولم يكن أشم، قاله بعضهم بنحوه.

وورد وصفه بذلك في حديث هند بن أبي هالة، قال ابن ناصر الدين: قال هند: «أزج الحواجب سوابغ من غير قرن»:

«الزجج»: دقة الحاجبين مع التقوس. و«سوابغ»: أي طوال إلىٰ محاذاة آخر العين.

وقوله: «من غير قرن» أي: من غير التقاء طرفيهما متصلاً مما يلي أعلىٰ الأنف، والعرب يستحبون البلج ويستحسنونه علىٰ القرن . و«البلج»: خلو ما بين رأس الحاجبين مما يلي أعلىٰ الأنف من الشعر. وقول أمِّ معبدٍ في وصفه ﷺ «أزج أقرن» تقدم تعليله، ولله الحمد.

(٨) له ولأبيه صحبة . وأمه امرأة من بنىٰ عدىٰ بن النجار اسمها صريمة قال البخارىٰ: وقال بعضهم : شهد بدرًا، ولم يصح .

وقال أحمد بن عبد الله بن البرقىٰ : وكان أوس بن ثابت شهد بدرا واستشهد يوم أحد . وتوفي شداد بن أوس بالشام .

وقال أبو القاسم الطبرانىٰ : أوس بن ثابت الأنصارىٰ عقبىٰ وهو أخو حسان بن ثابت وهو أبو شداد بن أوس .

=

نزل الشام ناحية فلسطين، وكان ممن أوتي العلم والحكمة، وروي أنه لما دنتْ وفاة رسول الله ﷺ قام ثم جلس، ثم قام ثم جلس، فقال له رسول الله ﷺ: «**يا شداد، وما سبب فعلك؟**»، فقال: يا رسول الله ! ضاقت بي الأرض، فقال: «**ألا إن الشام سيفتح، وبيت المقدس سيفتح إن شاء الله تعالىٰ، وتكون أنت وولدك من بعدك أئمة بها إن شاء الله**»(٩) فكان كما أخبر ﷺ.

وكان ذا عبادة واجتهاد.

تُوفي سنة ثمان وخمسين من الهجرة، وله خمس وسبعون سنة، وقيل: مات سنة إحدىٰ وأربعين، وقبره ظاهر ببيت المقدس بباب الرحمة تحت سور المسجد الأقصىٰ، يُزار ويُتبرك به(١٠)، والله أعلم.

= وقال المفضل بن غسان الغلابىٰ: زهاد الأنصار ثلاثة: أبو الدرداء، وشداد بن أوس، وعمير بن سعد. وكان عمر بن الخطاب ولاه حمص. وقال الفرج بن فضالة، عن أسد ابن وداعة: كان شداد بن أوس إذا أخذ مضجعه من الليل كان كالحبة علىٰ المقلىٰ، فيقول: اللهم إن النار قد حالت بيني وبين النوم، ثم يقوم فلا يزال يصلىٰ حتىٰ يصبح. وقال سعيد بن عبد العزيز : فضل شداد بن أوس الأنصارىٰ بخصلتين تبيان إذا نطق ويكظم إذا غضب . وقال نصر بن المغيرة، عن سفيان بن عيينة : قال عبادة بن الصامت: من لناس من أوتىٰ علمًا ولم يؤت حلمًا، ومنهم من أوتىٰ حلمًا ولم يؤت علما، ومنهم من أوتىٰ علمًا وحلمًا، وإن شداد بن أوس من الذين أتوا العلم والحلم .

(٩) حديث ضعيف: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧١٦٢) وضعفه الهيثمىٰ في «مجمع الزوائد» (٩/ ٤١٤).

(١٠) وهذا نوع من البدع المنكرة، والعجيب أن المؤلف يذكر ذلك ولاينكره!! فإنه لا يجوز التبرك بقبور الصالحين؛ لأن ذلك ذريعة لعبادة أصحابها من دون الله تعالىٰ.

ومثله في الغرابة قول بعض أهل العلم في تراجم الصالحين: «والدعاء عند قبره مستجاب»!!

* قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تاريخ الإسلام»:

صالح بن يونس أبو شعيب الواسطي الزاهد. كان من سادات الصوفية!!! ورد عنه أنه رأىٰ الحق في النوم، وحج علىٰ قدميه سبعين حجة. توفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين بالرملة. كان يعرف بالمقنع، والدعاء =

=

عند قبره مستجاب!!! وكان يكون بمصر وكان يحرم من القدس إلىٰ الرملة. ويقال: رأىٰ مرة كلبًا يلهث عطشًا في البادية، فقال: من يشتري مني سبعين حجة بشربة لهذا؟ فأعطاه رجل دمشقي، ماء، فسقي الكلب. انتهىٰ.

قال مقيده عفا الله عنه: كيف يقال: «والدعاء عند قبره مستجاب»؟!!! فهل الإمام الذهبي رحمه الله يعتقد مثل هذا ويصححه! أم أنه ذكر ما يحكىٰ عن الرجل فقط؟ ولماذا لم ينبه علىٰ بطلان هذه المقالة؟ الله أعلم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان بدع أصحاب القبور:

قال شيخنا – قدس الله روحه –: وهذه الأمور المبتدعة عند القبور مراتب:

أبعدها عن الشرع: أن يسأل الميت حاجته، ويستغيث به فيها، كما يفعله كثير من الناس؛ قال: وهؤلاء من جنس عباد الأصنام، وهذا يحصل للكفار من المشركين وأهل الكتاب؛ يدعو أحدهم من يعظمه، ويتمثل لهم الشيطان أحيانًا، وقد يخاطبهم ببعض الأمور الغائبة.

ثم ذكر المرتبة الثانية، وهي: أن يسأل الله به، وقال: هو بدعة باتفاق المسلمين.

والثالثة: أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب، أو أنه أفضل من الدعاء في المسجد؛ فهذا أيضا من المنكرات المبتدعة باتفاق المسلمين، وهي محرمة، وما علمت في ذلك نزاعا بين أئمة الدين؛ وإن كان كثير من الناس يفعل ذلك، انتهىٰ.

قال: ففرض علىٰ كل أحد: أن يعلم ما أمر الله به ورسوله، من إخلاص العبادة لله وحده، فإنه الدين الذي بعثه به، وأن يترك ما نهىٰ الله عنه ورسوله ﷺ من الشرك فما دونه، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[سورة يونس آية: ١٠٦]، وأن لا يدين الله تعالىٰ إلا بما دل الدليل علىٰ أنه من دين الله، ولا يكون إمعة يطير مع كل ريح.

فإن الناس من أمة محمد ﷺ والأمم قبلها، قد تنازعوا في ربهم وأسمائه وصفاته، وما يجب له علىٰ عباده، وقد قال تعالىٰ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [سورة النساء آية : ٥٩]. فيا سعادة من تجرد عن العصبية والهوىٰ، والتجأ إلىٰ حصن الكتاب والسنة؛ فإن العلم معرفة الهدىٰ بدليله، وما ليس كذلك فجهل وضلال. انتهىٰ كلام ابن القيم رحمه الله.

قال مقيده عفا الله عنه:

وقد ذكر الذهبي رحمه الله هذه المقالة في عدة مرات من كتبه، فقال في «العبر في خبر من غبر» وفي «تذكرة الحفاظ» في ترجمة صالح الهمذاني بن أحمد، الحافظ أبي الفضل التَّميمي الأحنفي ابن السمسار، ويعرف أيضًا بابن الكوملاذ محدث همذان ـ قال: «والدعاء عند قبره مستجاب». ونقله السيوطي في «طبقات الحفاظ»!!

=

فصل

ترجمة الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ

وأما ترجمة الإمام أحمد؛ فهو أحمد بن محمد بن حنبل، وقد اشتهر بنسبته إلىٰ جده أبي أبيه حنبل بن هلال بن أسد الشيباني؛ لأنه من بني شيبان ـ بفتح الشين المعجمة ـ ابن ذُهَل ـ بضم الذال المعجمة ـ بن ثعلبة؛ كما نسبه ولده عبد الله، واعتمده الخطيب وغيره(١١).

وغلَّط الخطيب عباسًا الدوريَّ وأبا بكر بن أبي داود في قولهم: إنه من ذُهل بن شيبان بن ثعلبة؛ وذهل بن ثعلبة هو عم ذهل بن شيبان.

المروزي، ثم البغدادي؛ لأنه قُدِم به من مرو إلىٰ بغداد وهو حمل، فولد بها في ربيع الأول سنة أربع وستين ومئة، ونشأ بها، وسمع من شيوخها، ثم دخل البصرة، والكوفة، ومكة، والمدينة، واليمن، والشام، والجزيرة، وغيرها.

= وقال في «سير أعلام النبلاء» وفي «العبر في خبر من غبر» وفي «تاريخ الإسلام» في ترجمة «ابن لال»، الإمام أبي بكر أحمد بن علي بن أحمد الهمذاني: «والدعاء عند قبره مستجاب»! ونقله المناوي في «فيض القدير» فقال: وقالوا: الدعاء عند قبره مستجاب!! والسبكي في «طبقات الشافعية» والقاضي ابن شهبة في «تاريخه» والكتاني في «الرسالة المستطرفة».

ويقول أحمد المقري التلمساني في «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» في ترجمة أبي مدين وهو شعيب بن الحسين الأندلسي ؛ قال: ونقل المعتنون بأخباره أن الدعاء عند قبره مستجاب، وجربه جماعة، وقد زرته مئين من المرات، ودعوت الله تعالىٰ عنده بما أرجو قبوله.

(١١) راجع نسب الإمام أحمد في «سيرة الإمام أحمد – رواية ابنه صالح» نشر المكتبة الإسلامية بالقاهرة بتحقيقي.

من سمع منهم:

وسمع من :

إسماعيل ابن عُلَيَّة.

وهُشيم بن بَشير.

ويحيىٰ بن سعيد القطان.

وسفيان بن عيينة.

وعبد الرزاق الصنعاني.

وغيرهم.

من روى عنه :

وروىٰ عنه :

ابناه: صالح، وعبد الله.

وابن عمه حنبل بن إسحاق.

والبخاري.

ومسلم.

وأبو داود السجستاني.

وخلق لا يحصون.

ولم يرو عنه البخاري في صحيحه إلا حديثًا واحدًا[١٢].

وقال الحازمي :

إن البخاري روىٰ عن أحمد بن الحسن الترمذي عن الإمام أحمد حديثًا آخر[١٣].

وفضائل الإمام أحمد مشهورة، ومناقبه مأثورة، قد أفردت بالتصنيف، واحتفل بها في التأليف : فصنف الحافظ البيهقي كتابًا في مناقبه حافلًا، وكذا الحافظ أبو إسماعيل الأنصاري صاحب كتاب «**منازل السائرين**»، والحافظ ابن الجوزي، وغيرهم. قال الإمام أبو زرعة لعبد الله ابن الإمام أحمد: كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث. وقال قتيبة بن سعيد : أحمد إمام الدنيا. وقال إسحاق بن راهويه : أحمد حجة بين الله وخلقه.

مكانته العلمية:

وسئل رضي الله عنه عن ستين ألف مسألة، فأجاب بحدثنا وأخبرنا لا من كتاب.

وقال الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه «**منتهىٰ النقول**» : كان ابن جرير يحفظ كتبًا حِمْلَ ثمانين بعيرًا، وكان حِفْظُ ابن الأنباري في كل جمعة ألف كراس، وحفظ ثلاث مئة ألف بيت من الشعر استشهادًا للنحو، وكان الإمام الشافعي يحفظ من مرة

---

(١٢) رواه البخارىٰ في صحيحه / كتاب النكاح/ باب مايحل من النساء وما يحرم. قال: وقال لنا أحمد بن حنبل....الحديث.

(١٣) في صحيحه / كتاب المغازي/ باب/ كم غزا النبي ﷺ .

أو نظرة، وابن سينا الحكيم(١٤) حفظ القرآن في ليلة واحدة، وكان أبو زرعة يحفظ ألف ألف حديث، والبخاري حَفِظَ عشرها؛ أي : مئة ألف حديث. قال : والكل من بعض محفوظ الإمام أحمد بن حنبل. انتهىٰ.

وأطلق غير واحد من العلماء بأنه ﷺ أحاط بالسُّنة، وأنه لم يُحِطْ بها أحد سواه(١٥).

---

(١٤) الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، له كثير من الانحرافات العقدية والضلال المبين، حتىٰ ذكر أن النبوة خيال محض لا حقيقة له، وقد حكم بكفره جماعة من أهل العلم.

(١٥) والشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: أحمد بن حنبل إمام في ثمان خصالٍ:

١ ـ إمام في الحديث.

٢ ـ إمام في الفقه.

٣ ـ إمام في اللغة.

٤ ـ إمام في القرآن.

٥ ـ إمام في الفقر.

٦ ـ إمام في الزهد.

٧ ـ إمام في الورع.

٨ ـ إمام في السنة.

وقد شرح ذلك الإمام القاضي أبو الحسين محمد بن أبي يعلىٰ صاحب «طبقات الحنابلة» فقال رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٥ـ ١٩):

أما قوله: «إمام في الحديث»:

فهذا ما لا خلاف فيه ولا نزاع، حصل به الوفاق والإجماع، أكثر منه التصنيف، والجمع والتأليف، وله الجرح والتعديل، والمعرفة التعليل، والبيان والتأويل. قال أبو عاصم النبيل يومًا: مَن تَعُدُّون في الحديث ببغداد؟ فقالوا: يحيىٰ بن معين، وأحمد بن حنبل، وأبا خيثمة ونحوهم. فقال: من تعدون بالبصرة عندنا؟ فقالوا: علي بن المديني، وابن الشاذكوني، وغيرهما. فقال: مَن تعدون بالكوفة؟ قلنا: ابن أبي شيبة، وابن نُمير، وغيرهما. فقال أبو عاصم ـ وتنفس ـ ها، ها، ما أحدٌ من هؤلاء إلا وقد جاءنا ورأيناه، فما رأيت في القوم مثل ذلك الفتىٰ أحمد بن حنبل. وقال أبو عبيد القاسم بن سلَّام: انتهىٰ العلم إلىٰ أربعة: أحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، ويحيىٰ بن معين، وأبي بكر بن أبي شيبة. وكان أحمد بن حنبل أفقههم فيه. =

=

ودخل الشافعي يومًا علىٰ أحمد بن حنبل، فقال: يا أبا عبد الله، كنت اليوم مع أهل العراق في مسألة كذا. فلو كان معي حديث عن رسول الله ﷺ؟ فدفع إليه أحمد ثلاثة أحاديث. فقال له: جزاك الله خيرًا. وقال الشافعي لإمامنا أحمد يومًا: أنتم أعلم بالحديث والرجال، فإذا كان الحديث الصحيح فأعلموني، إن شاء يكون كوفيًّا، أو شاء شاميًّا، حتىٰ أذهب إليه إذا كان صحيحًا. وهذا من دين الشافعي حيث سلَّم هذا العلم لأهله. وقال عبد الوهاب الوراق: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل. قالوا له: وإيش الذي بان لك من علمه وفضله علىٰ سائر مَنْ رأيت؟ قال: رجل سئل عن ستين ألف مسألة، فأجاب فيها بأن قال: «أخبرنا» و«حدثنا». وقال إبراهيم الحربي ـ وقد ذكر أحمد ـ: كأن الله قد جمع له علم الأولين من كل صنف، يقول ما يرىٰ، ويمسك ما شاء. وقال أبو زُرعة الرازي: حَزَرنا حفظ أحمد بن حنبل بالمذاكرة علىٰ سبعمائة ألف حديث. وفي لفظ آخر: قال أبو زرعة الرازي: كان أحمد يحفظ ألف ألف. فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرته، فأخذت عليه الأبواب.

وأما الخصلة الثانية: وهي قوله: «إمام في الفقه»:

فالصدق فيه لائح، والحق فيه واضح، إذ كان أصل الفقه: كتاب الله وسنة رسوله وأقوال صحابته. وبعد هذه الثلاثة: القياس، ثم قد سُلِّم له الثلاث، فالقياس تابع. وإنما لم يكن للمتقدمين من أئمة السنة والدين تصنيف في الفقه، ولا يرون وضع الكتب ولا الكلام، إنما كانوا يحفظون السنن والآثار، ويجمعون الأخبار، ويفتون بها. فمن نقل عنهم العلم والفقه كان رواية يتلقاها عنهم، ودراية يتفهمها منهم. ومن دقق النظر وحقق الفكر: شاهد جميع ما ذكرته. وأما نقلة الفقه عن إمامنا أحمد فهم أعيان البلدان، وأئمة الأزمان. منهم ابناه صالح وعبد الله، وابن عمه حنبل، وإسحاق بن منصور الكوسج المروزي وأبو داود السجستاني، وأبو إسحاق إبراهيم الحربي، وأبو بكر الأثرم، وأبو بكر المروذي، وعبد الملك الميموني، ومُهنَّا الشامي، وحرب الكرماني، وأبو زرعة: وأبو حاتم الرازيان، وأبو زرعة الدمشقي، ومثنىٰ بن جامع الأنباري، وأبو طالب المسكاني، والحسن بن ثواب، وابن مشيش، وابن بدينا الموصلي، وأحمد بن القاسم، وهم مائة ونيف وعشرون نفسًا. وأما نقلة الحديث عنه: فقد جُمعت فيهم المصنفات، وساقهم الأئمة الثقات. وقال الأثرم: قلت يومًا ـ ونحن عند أبي عبيد القاسم بن سلام ـ في مسألة. فقال بعض من حضر: هذا قول مَن؟ فقلت: من ليس بغرب ولا شرق أكبر منه: أحمدبن حنبل. قال أبو عبيد: صدق. وقال إسحاق بن راهويه: سمعت يحيىٰ بن آدم يقول: أحمد بن حنبل إمامنا. وقال أبو ثور: أحمد بن حنبل أعلم من الثوري وأفقه.

وأما الخصلة الثالثة: وهي قوله: «إمام في اللغة»:

فهو كما قاله. قال المروذي: كان أبو عبد الله لا يلحن في الكلام. ولما نوظر بين يدي الخليفة كان يقول: كيف أقول ما لم يُقَل؟! وقال أحمد ـ فيما رواه عنه محمد بن حبيب ـ كتبت من العربية أكثر مما كتب أبو عمرو بن العلاء وكان يُسأل عن ألفاظ من اللغة تتعلق بالتفسير والأخبار، فيجيب عن ذلك بأوضح جواب،

=

=

وأفصح خطاب. فروىٰ عبد الله بن أحمد: سألت أبي عن حديث إسماعيل بن عُلَيَّة عن أيوب عن أبي معشر قال: «يكره التكفير في الصلاة» قال أبي: التكفير أن يضع يمينه عند صدره في الصلاة. وقال عبد الله أيضًا: قرأت علىٰ أبي: أبو خالد الأحمر عن ابن جريج عن عطاء قال «في الوطواط: ثلثي درهم» سألت أبي عن الوطواط؟ قال: هو الخُطَّاف. وقال عبد الله أيضًا: سألت أبي عن نهي النبي ﷺ عن بيع المجبر؟ فقال: يعني ما في الأرحام. وقال عبد الله أيضًا: سئل أبي عن حَبل الحَبَلة؟ قال: التي في بطنها إذا وضعت وتحمل. نهىٰ النبي ﷺ عنه لأنه غرر. يقول: نتاج الجنين. وقال عبد الله بن أحمد أيضًا: سمعت أبي في حديث ابن مسعود «كفىٰ بالمَعْك ظلمًا». قال أبي: المعك: المطْل. وقال عبد الله بن أحمد: حدثني أبي حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير: «كان رجل يداين الناس، له كاتب ومتجازٍ». قال أبي: «المتجازي»: المتقاضي. وقال حرب الكرماني: قلت لأحمد: ما تفسير «لا تقضية في ميراث إلا ما حمل القَسْم»؟ قال: إن كان شيئًا إن قسم أضَرَّ بالورثة، مثل الحمام وغير ذلك مما لا يمكن قَسْمه.

وأما الخصلة الرابعة: وهي قوله: «إمام في القرآن»:

فهو واضح البيان لائح البرهان. قال أبو الحسين بن المنادي: صنف أحمد في القرآن: التفسير. وهو مائة ألف وعشرون ألفًا، يعني حديثًا. والناسخ والمنسوخ، والمقدم والمؤخر في كتاب الله تعالىٰ، وجواب القرآن وغير ذلك. وقال عبد الله بن أحمد: كان أبي يقرأ القرآن في كل أسبوع ختمتين، إحداهما بالليل، والأخرىٰ بالنهار. وقد ختم إمامنا أحمد القرآن في ليلة بمكة مصليًّا به.

وأما الخصلة الخامسة: وهي قوله: «إمام في الفقر»:

فيا لها خلة مقصودة، وحالة محمودة، منازل السادة الأنبياء، والصفوة الأتقياء. أنبأنا الوالد السعيد بإسناده عن أبي جعفر في قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان:٧٥] قال: الجنة ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ قال: علىٰ الفقر في الدنيا.

وأما الخصلة السادسة: وهي قوله: «إمام في الزهد»:

فحاله في ذلك أظهر وأشهر، أتته الدنيا فأباها، والرياسة فنفاها، عرضت عليه الأموال، وفرضت عليه الأحوال، وهو يَرُدُّ ذلك بتعفف وتعلل وتقلل. ويقول: قليل من الدنيا يجزئ، وكثيرها لا يجزئ. ويقول: أنا أفرح إذا لم يكن عندي شيء. ويقول: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وأيام قلائل. وقال إسحاق بن هانئ: بكَّرتُ يومًا لأعارض أحمد بالزهد، فبسطتُ له حصيرًا ومَخَدَّة، فنظر إلىٰ الحصير والمخدة، فقال: ما هذا؟ قلت: لتجلس عليه. فقال: ارفعه، الزهد لا يحسن إلا بالزهد. فرفعته، وجلس علىٰ التراب. وقال أبو عمير عيسىٰ بن محمد بن عيسىٰ ـ وذكر عنده أحمد بن حنبل ـ فقال: رحمه الله، عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، وبالصالحين ما كان ألحقه. عرضت له الدنيا فأباها، والبدع فنفاها.

وأما الخصلة السابعة: وهي قوله: «إمام في الورع» :

=

وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ :

وتوفي الإمام أحمد رضي الله عنه ببغداد ضحوة الجمعة، ثاني عشر ربيع الأول، سنة إحدىٰ وأربعين ومئتين، وعمره سبع وسبعون سنة، وَوهِمَ المناوي في «شرحه الكبير علىٰ الجامع الصغير» فزعم أن عمره سبع وثمانون.

=

فصدق في قوله وبرع، فمن بعض ورعه: قال أبو عبد الله السمسار: كانت لأم عبد الله بن أحمد دار معنا في الدرب، يأخذ منها أحمد درهمًا بحق ميراثه. فاحتاجت إلىٰ نفقة لتصلحها، فأصلحها ابنه عبد الله، فترك أبو عبد الله أحمد الدرهم الذي كان يأخذه، وقال: قد أفسده عليَّ. قلت: إنما تورع من أخذ حقه من الأجرة، خشية أن يكون ابنه أنفق علىٰ الدار مما يصل إليه من مال الخليفة. ونهىٰ ولديه وعمه عن أخذ العطاء من مال الخليفة فاعتذروا بالحاجة، فهجرهم شهرًا لأخذ العطاء. ووصف له دهن اللوز في مرضه. قال حنبل: فلما جئناه به قال: ما هذا؟ قلنا: دهن اللوز، فأبىٰ أن يذوقه. وقال: الشِّيرج. فلما ثقل واشتدت علته جئناه بدهن اللوز. فلما تبين أنه دهن اللوز كرهه ودفعه، فتركناه ولم نعد له. ووصف له في علته قَرعة تشوىٰ ويؤخذ ماؤها، فلما جاءوا بالقرعة قال بعض من حضر: اجعلوها في تَنُّور صالح. فإنهم قد خبزوا. فقال بيده: لا، وأبىٰ أن يوجه بها إلىٰ منزل صالح. قال حنبل: ومثل هذا كثير.

وأما الخصلة الثامنة، وهي قوله: «إمام في السنة»:

فلا يختلف العلماء الأوائل والأواخر: أنه في السنة الإمام الفاخر، والبحر الزاخر، أُوذي في الله عز وجل فصبر، ولكتابه نصر، ولسنة رسول الله ﷺ انتصر، أفصح الله فيها لسانه، وأوضح بيانه، وأرجح ميزانه. لا رَهَبَ ما حُذِّر، ولا جَبُن حين أُنذر، أبان حقًّا، وقال صدقًا، وزان نطقًا وسبقًا. ظهر علىٰ العلماء، وقهر العظماء ففي الصادقين ما أوجهه! وبالسابقين ما أشبهه، وعن الدنيا وأسبابها ما كان أنزهه! جزاه الله خيرًا عن الإسلام والمسلمين، فهو للسنة كما قال الله في كتابه المبين: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١٣] قال علي بن المديني: أيَّد الله هذا الدين برجلين لا ثالث لهما: أبو بكر الصديق يوم الرِّدة، وأحمد بن حنبل في يوم المحنة. وقيل لبشر بن الحارث يوم ضُرِب أحمد: قد وجب عليك أن تتكلم. فقال: تريدون مني مقام الأنبياء؟! ليس هذا عندي، حفظ الله أحمد بن حنبل من بين يديه ومن خلفه، ثم قال بعد ما ضرب أحمد: لقد أدخل الكير فخرج ذهبة حمراء. وقال الربيع بن سليمان، قال الشافعي: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر. فقلت: تطلق عليه اسم الكفر؟ فقال: نعم، من أبغض أحمد بن حنبل عاند السنة، ومن عاند السنة قصد الصحابة، ومن قصد الصحابة أبغض النبي، ومن أبغض النبي ﷺ كفر بالله العظيم. وقال أحمد بن إسحاق بن راهويه: سمعت أبي يقول: لولا أحمد بن حنبل وبَذْلُ نفسه لما بذلها لذهب الإسلام.

وصلىٰ عليه ﷺ ألف ألف وثلاث مئة ألف سوىٰ من كان في السُفُن.

وقال الإمام الحافظ أبو زرعة: إن المتوكل أمر بمسح الموضع الذي صُلِّي عليه فيه، فبلع مقام ألفي ألف وخمس مئة ألف.

وأسلم يوم موته من اليهود والنصارىٰ والمجوس عشرون ألف[١٦]، والله الموفق.

مطلب

ترجمة الإمام البخاري

وأما ترجمة الإمام البخاري؛ فهو: أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ـ بضم الميم علىٰ المشهور ويجوز كسرها بن يزدزبه فتح المثناة تحت ثم سكون الزاي فدال مهملة مكسورة فزاي ساكنة أيضًا فموحدة فهاء.

كذا ضبطه ابن خِلِّكان عن بعضهم، ثم نقل عن ابن ماكولا أنه ابن بردزبه بالموحدة فراء مهملة فزاي ساكنة فموحدة فهاء. قال: وهو بالبخارية، ومعناه بالعربية: الزارع.

وهو مولىٰ الجعفيين ولاء- إسلامٍ؛ لأن جده المُغيرة أسلم علىٰ يد يمان البخاري الجعفي، وهو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن جعفر بن يمان المُسندي

---

(١٦) قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وهي حكاية منكرة، والعقل يحيل أن يقع مثل هذا الحادث في بغداد ولا ينقله جماعة تنعقد هممهم ودواعيهم علىٰ نقل ما هو دون ذلك بكثير، ...، فوالله لو أسلم يوم موته عشرة أنفس لكان عظيمًا، ولكان ينبغي أن يرويه نحو من عشرة أنفس، ثم انكشف لي كذب الحكاية ..

شيخ البخاري[١٧].

بعض من روى عنهم:

روىٰ البخاري عن:

الإمام أحمد.

وأبي نُعيم.

ويحيىٰ بن معين.

وخلق يزيدون علىٰ ألف.

وروى عنه:

الترمذي.

وكذا النسائي - فيما قيل -.

---

(١٧) قال المزي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تهذيب الكمال» : عبد الله بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن اليمان بن أخنس بن خنيس الجعفي، أبو جعفر البخاري المعروف بالمسندي، سمىٰ بذلك لأنه كان يطلب المسندات ويرغب عن المراسيل والمقاطيع . وجده اليمان بن أخنس، أحد أجداد البخارىٰ من فوق.

وقال البخاري : قال لىٰ الحسن بن شجاع : من أين يفوتك الحديث وقد وقعت علىٰ هذا الكنز، يعنىٰ : المسندي .

وقال أحمد بن سيار المروزي : كان أبو جعفر المسندي غاب عن بلده، وأقام في طلب الحديث في الآفاق، وكان يلقب بالمسندي، ومن المعروفين من أهل العدالة والصدق صاحب سنة وجماعة، عرف بالإتقان والضبط، وقد رأيته بواسط، حسن القامة، أبيض الرأس واللحية، فيه سواد قليل، ساكنا أيضًا . ورجع إلىٰ بخارىٰ ومات بها . قال البخاري: مات يوم الخميس أول النهار لست بقين من ذي القعدة سنة تسع وعشرين ومئتين .

ومسلم خارج الصحيح.

وعن محمد بن يعقوب الحافظ، عن أبيه؛ قال: رأيت مسلم بن الحجاج بين يدي البخاري يسأله سؤال الصبيِّ المتعلم، فقال له: لا يبغضك إلا حاسد[١٨]، وأشهد أنه ليس في الدنيا مثلك. وكذلك روىٰ عنه: أبو زرعة، وإبراهيم الحربي، وغيره. وكان يحضر مجلسه أكثر من عشرين ألفًا يأخذون عنه. قال البخاري: أحفظ مئة ألف حديث صحيح، ومئتي ألف حديث غير صحيح.

أمراء المؤمنين في الحديث:

وهو أحد الذين سُمُّوا من المحدثين: أمير المؤمنين. أولهم: عبد الله بن ذكوان. ثم مالك. ومحمد بن إسحاق. وشعبة بن الحجاج. وسفيان الثوري. والواقدي[١٩].

---

(١٨) وفي أيامنا الصعبة كتب أحد الحاسدين كتابًا وسماه بـ «جناية البخاري، حماية الدين من إمام المحدثين» ووصف فيه صحيح البخاري بأنه مليء بالانحرافات والخرافات والأكاذيب والأساطير !! وهذا والله قد نادىٰ علىٰ نفسه بالعار والشنار والخيبة والخسران والحرمان مدة بقاء الدنيا. وقد أراد ذلك الحاسد أن ينتقد صحيح البخارىٰ حسبة لله بزعمه!! قال: وما يمنع من ذلك وقد كان أصحاب النبي ﷺ ينتقدونه فيقبل ذلك بصدر رحب واسع!! ثم فغر فاه قائلًا: والبخاري أحق بالنقد من رسول الله ﷺ.. كذا قال ذلك المخذول المحروم من كل خير، فلم يضرَّ ذلك البخاريَّ شيئًا فهو نجم عالٍ في الثريَّا، لايصل إليه الجرذان، والصعاليك، والمتعالمون، والمتفيهقون، خيَّب الله مسعاهم في الدنيا والآخرة.

(١٩) محمد بن عمر الواقدي، صاحب التصانيف والمغازي، وهو أحد أوعية العلم، ولكنه ضعيف، ولا يستغنىٰ عنه في المغازي وأيام الصحابة وآثارهم، وإطلاق «أمير المؤمنين» عليه في الحديث، فيه نظر. قال البخارىٰ : الواقدي مديني سكن بغداد، متروك الحديث، تركه أحمد، وابن نمير، وابن المبارك، وإسماعيل بن زكريا . وقال في موضع آخر : كذبه أحمد . وقال معاوية بن صالح قال لىٰ أحمد بن حنبل: هو كذاب. وقال معاوية أيضًا عن يحيىٰ بن معين: ضعيف . وقال في موضع آخر: ليس بشيء. وقال في موضع آخر: قلت ليحيىٰ: لم لم تعلم عليه حيث كان الكتاب عندك ؟ قال: أستحي من ابنه، وهو لي صديق. قلت: فماذا تقول فيه؟ قال : كان يقلب حديث يونس يغيرها عن معمر، ليس بثقة . وقال عباس =

وأبو عبد الله محمد بن يحيىٰ الذهلي. وأبو نُعيم الفضل ابن دُكين. وقيل: ومسلم جدير بذلك، وإن لم يبلغنا أنهم لقبوه بذلك. ومناقب البخاري شهيرة، وفضائله كثيرة.

ولادته ووفاته:

واتفقوا علىٰ أنه وُلد بعد صلاة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومئة، وتوفي ليلة السبت عند العشاء ليلة عيد الفطر ودُفن يومَه بعد الظهر سنة ست وخمسين ومئتين، بقرية تسمىٰ خَرَنْتَك ـ بفتح الخاء المعجمة ثم راء مفتوحة، ثم نون ساكنة ثم مثناة، ثم كاف ـ فوق قرية من قرىٰ سمرقند.

= الدوري، عن يحيىٰ بن معين: ليس بشيء . وقال عبد الوهاب بن الفرات الهمداني: سألت يحيىٰ بن معين عن الواقدىٰ، فقال : ليس بثقة .

وقال المغيرة بن محمد المهلبي : سمعت علىٰ ابن المديني يقول : الهيثم بن عدي أوثق عندي من الواقدي، ولا أرضاه في الحديث ولا في الأنساب ولا في شيء . وقال أبو داود : أخبرني من سمع علىٰ ابن المديني يقول : روىٰ الواقدي ثلاثين ألف حديث غريب . وقال مسلم : متروك الحديث . وقال النسائي : ليس بثقة . وقال الحاكم أبو أحمد : ذاهب الحديث. وقال محمد بن سعد : محمد بن عمر بن واقد الواقدي مولىٰ لبني سهم من أسلم، وكان قد تحول من المدينة، فنزل بغداد، وولىٰ القضاء لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين بعسكر المهدي أربع سنين، وكان عالمًا بالمغازي، والسيرة، والفتوح، وباختلاف الناس في الحديث، والأحكام، واجتماعهم علىٰ ما اجتمعوا عليه، وقد فسر ذلك في كتب استخرجها ووضعها وحدث بها .

وقال أبو بكر الخطيب : قدم الواقدي بغداد، وولىٰ قضاء الجانب الشرقي منها، وهو ممن طبق شرق الأرض وغربها ذكره، ولم يخف علىٰ أحد عرف أخبار الناس أمره وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي، والسير، والطبقات، وأخبار النبي ﷺ والأحداث التي كانت في وقته، وبعد وفاته ﷺ، وكتب الفقه، واختلاف الناس في الحديث، وغير ذلك، وكان جوادًا كريمًا مشهورًا بالسخاء.

مطلب

ترجمة الإمام الترمذي

أما ترجمة الترمذي؛ فهو: الإمام، الحافظ، أبو عيسىٰ، محمد بن عيسىٰ ابن سَوْرة ـ بفتح السين المهملة فواو ساكنة فراء مهملة فهاء تأنيث ـ ابن موسىٰ بن الضحاك السلمي الضرير، ولد أكمه، النحوي[٢٠]، الترمذي.

أحد أئمة الحديث، ومصنف أحد الكتب الستة، وهي: «صحيح البخاري»، و «مسلم»، و«سنن أبي داود»، و«جامع الترمذي»، و«النسائي»، و«ابن ماجه».

وله أيضًا «كتاب التواريخ»، و«العلل» وكان يُضرب بحفظه المثل. وهو تلميذ البخاري، وشاركه في بعض شيوخه؛ مثل: قتيبة بن سعيد، ومحمد بن بشار، وغيرهما.

مكانة جامع الترمذي:

قال الإمام أبو إسماعيل الهَروي الحافظ الحنبلي صاحب كتاب «منازل السائرين»: «جامع الترمذي» عندي أنفع من كتاب البخاري ومسلم؛ لأن كتابيهما لا يصل إلىٰ الفائدة منهما إلا المُتَبَحِّرُ العالم، وكتاب أبي عيسىٰ يصل إلىٰ فائدته كل أحد.

قال ابن السَّمعاني: الترمذي نسبةً إلىٰ مدينة قديمة علىٰ طرف نهر بلخ، الذي يقال له: جيحون، والناس مختلفون في كيفية هذه النسبة، بعضهم يفتح التاء

(٢٠) يعني: من بني نحو، وبنو نحو: الأزد.

وبعضهم يضمها وبعضهم يكسرها، والمشهور علىٰ ألسنة عامة الناس كسر التاء، والمتداول علىٰ الأَلْسُن فتح التاء وكسر الميم، والذين يضمون التاء يضمون معها الميم.

وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

توفي رضي الله عنه لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة تسع وسبعين ومئتين بترمذ. وقال السمعاني: بقرية بوغ ـ بضم الباء الموحدة والغين المعجمة ـ سنة خمس وسبعين ومئتين. وقال الخليلي في «الإرشاد»: مات بعد الثمانين ومئتين. ولم يرتضه الأئمة. قال الحافظ العراقي عن قول الخليلي: قاله علىٰ الظن، وليس بصحيح. والله أعلم.

مطلب

ترجمة الإمام النسائي

وأما ترجمة النسائي؛ فهو أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، مصنف كتاب «السنن الكبرىٰ» و«الصغرىٰ» و«الكبرىٰ» إحدىٰ الكتب الستة.

قال الحافظ أبو عبد الله الحاكم: كان النسائي إمام أهل الحديث، وكان يصوم الدهر، ويختم القرآن في كل يوم وليلة؛ فإذا كان في رمضان؛ ختم في كل يوم مرتين، وكان يجاهد، ويرابط، ولما امتُحِن بدمشق؛ قال: احملوني إلىٰ مكة، فحُمِل إليها، فتوفي بها، وهو مدفون بين الصفا والمروة. قاله في «الزهر البسام».

وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

قال الحافظ العراقي: إنه توفي بفلسطين، في صفر، سنة ثلاث وثلاث مئة. قاله الطحاوي، وابن يونس، وزاد: يوم الإثنين لثلاث عشرة خلت منه.

وكذا قال الحافظ أبو عامر العبدري: إنه مات بالتاريخ المذكور بالرملة، مدينة بفلسطين، ودفن ببيت المقدس.

وقال الدارقطني: حُمِل إلىٰ مكة فتوفي بها في شعبان سنة ثلاث.

وقال الحافظ أبو عبد الله بن منده عن مشايخه: إنه مات بمكة سنة ثلاث، وكان مولده سنة أربع عشرة ومئتين.

وأفصح ابن خِلِّكان عن سبب محنته، فقال: سكن مصر، وانتشرت بها تصانيفه، وأخذ عنه الناس، ثم فارق مصر في آخر عمره، وخرج إلىٰ دمشق، فَسُئل عن معاوية وما رُوي من فضائله؛ فقال: أما يرضىٰ معاوية أن يخرج رأسًا برأس حتىٰ يُفَضَّل؟! وفي رواية أخرىٰ: ما أعرف له فضيلة؛ إلا «**لا أشبع الله بطنك**»[٢١].

قال: وكان يتشبع. قال: فما زالوا يدفعون في حِضْنِهِ حتىٰ أخرجوه من المسجد، وفي رواية: يدفعون في خِصْيته، وداسوه، ثم حُمِل إلىٰ الرملة، فمات بها.

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: لما داسوه بدمشق؛ مات بسبب ذلك الدَّوْسِ.

وكان قد صنف كتاب «الخصائص» في فضل عليٍّ رضي الله عنه وأهل البيت، وأكثر

---

(٢١) رواه مسلم (١٦/ ١٥٥/ نووي) وكان النبي ﷺ قد أرسل إليه فقيل له: إنه يأكل- مرتين - فقال ﷺ : «لا أشبع الله بطنه» وروىٰ مسلم بعده قول النبي ﷺ : «فأيما أحد دعوتُ عليه من أمتي بدعوة، فاجعلها له طهورًا وزكاة وقربة».

رواياته فيه عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه؛ فقيل له: ألا تصنف كتابًا في فضائل الصحابة رضي الله عنهم؟ فقال: دخلت دمشق والمنحرف عن عليٍّ كثير، فأردت أن يهديهم الله بهذا الكتاب.

قال ابن خِلِّكان: وكان النسائي يصوم يومًا ويفطر يومًا. قال: وكان موصوفًا بكثرة الجماع.

بعضٌ من سيرته:

قال ابن عساكر الدمشقي رحمه الله: كان له أربع زوجات يَقْسم لهن وسراري.

وقال الدارقطني رحمه الله: امتُحِن النسائي بدمشق، فأدرك الشهادة، رحمه الله ورضي عنه. ثم ذكر الخلاف أين مات، ثم قال: وكان إمامًا في الحديث، ثقة، ثبتًا، حافظًا، وموفده بـ«نسا»، سنة عشرة- وقيل: أربع عشرة- ومئتين.

نسبة النسائي:

قال: ونسبته إلىٰ «نسأ» ـ بفتح النون والسين المهملة وبعدها همزة ـ وهي مدينة بخراسان، خرج منها جماعة من الأعيان. انتهىٰ.

وقال البرماوي رحمه الله في «شرح الزهر البسام»: والنسائي يقال فيه: النسوي أيضًا، نسبةً إلىٰ «نسا» كورة من كور نيسابور. وقال المسعودي رحمه الله: «نسا» من أرض فارس. وقال الحافظ عبد الغني بن سعيد رحمه الله: «نسا» موضع بخراسان. قال الرشاطي رحمه الله: والقياس: النسوي. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

المقصد الثاني

في بعض فضائل الاستغفار

مطلب

في ذكر الاستغفار وفضيلته والحث عليه

وقد ندب الله تعالىٰ إليه في كتابه العزيز، ومدح أهله، وأخبر أنه سبب لحصول الرزق والغيث(٢٢).

---

(٢٢) قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٦].

وقال تعالىٰ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:٣].

وقال تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي﴾ إلىٰ قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥-١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:١١٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣].

وقال تعالىٰ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

الاستغفار: هو طلب المغفرة، وما من إنسان إلا وهو خطاء كما قال النبي ﷺ: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»، والخطأ الذي يصدر من بني آدم: إما تقصير في واجب، أو فعل لمحرم، ولا يخلو الإنسان من ذلك، ولكن دواء الذنوب الاستغفار- والحمد لله- وفي الأثر: «أن الشيطان يقول: أهلكت بني آدم- يعني بالخطايا والذنوب- وأهلكوني بـ(لا إله إلا الله) والاستغفار».

فالاستغفار سبب للمغفرة، ولذا أمر الله تعالىٰ به في آيات كثيرة من القرآن ساق منها المؤلف جملة صالحة منها: قول الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فأمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يعلم بأنه لا معبود حقًّا إلا الله، وأمره أن يستغفر قال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ هذا وهو النبي ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أمر أن يستغفر لذنبه، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ =

www.alukah.net
شبكة الألوكة

=

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وكذلك أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ المستغفرين في آيات كثيرة ومنها ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾، وهم الذين يستغفرون الله في آخر الليل، قال العلماء: وذلك أنهم يتهجدون ويعبدون الله ويرون أنهم مقصرون فيسألون الله المغفرة، هذا مع أنهم مجتهدون قائمون الليل ومع ذلك يستغفرون خوفًا من التقصير، فينبغي للإنسان أن يكثر من استغفار الله ﷻ. اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «مدارج السالكين» (١/ ٢٣٩-٢٤٠):

وأما الاستغفار فهو نوعان: مفرد ومقرون بالتوبة:

فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١].

وكقول صالح عليه السلام لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

وكقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

والمقرون كقوله تعالىٰ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

وقول هود لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢].

وقول صالح لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

وقول شعيب: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

فالاستغفار المفرد كالتوبة بل هو التوبة بعينها مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره لا كما ظنه بعض الناس: أنها الستر فإن الله يستر علىٰ من يغفر له ومن لا يغفر له ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب ومنه المغفر لما يقي الرأس من الأذىٰ والستر لازم لهذا المعنىٰ وإلا فالعمامة لا تسمىٰ مغفرًا ولا القبع ونحوه مع ستره فلا بد في لفظ المغفرة من الوقاية وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فإن الله لا يعذب مستغفرًا وأما من أصر علىٰ الذنب وطلب من الله مغفرته فهذا ليس باستغفار مطلق ولهذا لا يمنع العذاب فالاستغفار يتضمن التوبة والتوبة تتضمن الاستغفار وكل منهما يدخل في مسمىٰ الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدىٰ اللفظتين بالأخرىٰ فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضىٰ والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضىٰ فالاستغفار منه: طلب وقاية =

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي «**صحيح مسلم**» و«**الترمذي**» و«**ابن ماجه**» وغيره: «**يابن آدم! كلكم مذنب إلا من عافيت؛ فاستغفروني أغفر لكم**»(٢٣). وفيه: «**ومن استغفرني، وهو يعلم أني ذو قدرة أن أغفر له؛ غفرتُ له، ولا أبالي**». ولفظ الترمذي: «**يا عبادي**».

وفي الترمذي أيضًا من حديث أنس ﷺ وقال: حسن غريب ـ عن رسول الله ﷺ؛ قال: «**قال الله: يابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني؛ غفرت لك علىٰ ما كان منك ولا أبالي. يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يابن آدم! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا؛ لأتيتك بقرابها مغفرة**»(٢٤).

=

شره وذنب يخاف وقوعه فالتوبة: العزم علىٰ أن لا يفعله والرجوع إلىٰ الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضىٰ ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله وأيضًا فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقًا تؤديه إلىٰ هلاكه ولا توصله إلىٰ المقصود فهو مأمور أن يوليها ظهره ويرجع إلىٰ الطريق التي فيها نجاته والتىٰ توصله إلىٰ مقصوده وفيها فلاحه.

فههنا أمران لا بد منهما: مفارقة شيء والرجوع إلىٰ غيره فخصت التوبة بالرجوع والاستغفار بالمفارقة وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين ولهذا جاء والله أعلم الأمر بهما مرتبًا بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٩٠] فإنه الرجوع إلىٰ طريق الحق: بعد مفارقة الباطل وأيضًا فالاستغفار من باب إزالة الضرر والتوبة طلب جلب المنفعة فالمغفرة أن يقيه شر الذنب والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده، والله أعلم.

(٢٣) رواه مسلم (٢٥٧٧) والترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٥٧).

(٢٤) حديث حسن: رواه الترمذي (٣٥٤٠) من طريق كثير بن فائد، عن سعيد بن عبيد، عن بكر بن عبد الله المزني، عن أنس مرفوعًا،وفي إسناده ضعفٌ، فإن كثير بن فائد لم يوثقه غير ابن حبان، وقال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ : حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقد حسنه رَحِمَهُ اللَّهُ لما له من شواهد، كما بيَّن ذلك ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في «جامع العلوم والحكم» (رقم ٤٢) والألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «السلسلة الصحيحة» (١٢٧، ١٢٨).

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ :

من فوائد هذا الحديث:

=

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«العنان» بفتح العين المهملة: السحاب، و«قراب الأرض» بضم القاف: ما

= ١- شرف بني آدم حيث وجه الله إليه الخطاب بقوله «يا ابن آدم» ولا شك أن بني آدم فُضلوا علىٰ كثير ممن خلقهم الله ﷻ وكرمهم الله سبحانه وتعالىٰ، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

٢- أن كلمة (ابن) أو: (بني) أو ما أشبه ذلك إذا أضيفت إلىٰ القبيلة أو إلىٰ الأمة تشمل الذكور والإناث، وإذا أضيفت إلىٰ شيء محصور فهي للذكور فقط. وهي هنا في الحديث مضافة إلىٰ الأمة كلها، حيث قال: «يا ابن آدم» فيشمل الذكور والإناث.

ويتفرع علىٰ هذه المسألة: لو قال قائل: هذا البيت وقف علىٰ بني صالح وهو واحد، فيشمل الذكور فقط، لأنهم محصورون، أما لو قال: هذا وقف علىٰ بني تميم شمل الذكور والإناث.

٣- أنه من دعا الله ورجاه فإن الله تعالىٰ يغفر له.

٤- أنه لا بد مع الدعاء من رجاء، وأما القلب الغافل اللاهي الذي يذكر الدعاء علىٰ وجه العادة فليس حريًا بالإجابة، بخلاف الذكر كالتسبيح والتهليل وما أشبه ذلك، فهذا يُعطىٰ أجرًا به، ولكنه أقل مما لو استحضر وذكر بقلبه ولسانه.

والفرق ظاهر، لأن الداعي محتاج فلا بد أن يستحضر في قلبه ما احتاج إليه،،أنه مفتقر إلىٰ الله ﷻ.

٥- إثبات صفات النفي التي يسميها العلماء الصفات السلبية، لقوله: «ولا أبالي» فإن هذه صفة منفية عن الله تعالىٰ، وهذا من قسم العقائد. وهذا كثير في القرآن مثل قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥] وقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] ولكن اعلم أن المراد بالصفات المنفية إثبات كمال الضد، فيكون نفي المبالاة هنا يراد كمال السلطان والفضل والإحسان، وأنه لا أحد يعترض علىٰ الله أو يجادله فيما أراد.

٦- أن الله تعالىٰ يغفر الذنوب جميعًا مهما عظمت لقوله: «لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك» وأن الإنسان متىٰ استغفر الله ﷻ من أي ذنب كان عظَمًا وقدرًا فإن الله تعالىٰ يغفره، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

٦- أن الإنسان إذا أذنب ذنوبًا عظيمة ثم لقي الله لا يشرك به شيئًا غفر الله له.

ولكن هذا ليس علىٰ عمومه لقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فقوله هنا في الحديث: لأتيتك بقرابها مغفرة هذا إذا شاء، وأما إذا لم يشأ فإنه يعاقب بذنبه.

٧- فضيلة التوحيد وأنه سبب لمغفرة الذنوب، وقد قال الله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فمهما عظمت الذنوب إذا انتهىٰ الإنسان عنها بالتوحيد غفر الله له.

٨- إثبات لقاء الله ﷻ لقوله: «ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا» وقد دل علىٰ ذلك كتاب الله ﷻ،قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، فلابد من ملاقاة الله لأ، والنصوص في هذا كثيرة، فيؤخذ من ذلك: أنه يجب علىٰ الإنسان أن يستعد لملاقاة الله، وأن يعرف كيف يلاقي الله، هل يلاقيه علىٰ حال مرضية عند الله ﷻ، أو علىٰ العكس؟ ففتش نفسك واعرف ما أنت عليه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يقارب ملأها.

وروىٰ الإمام أحمد والحاكم ـ وقال: صحيح الإسناد ـ عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ: «**قال إبليس: وعزتك لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال: وعزتي وجلالي؛ لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**».

وروىٰ البيهقي عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «**ألا أدلكم علىٰ دائكم ودوائكم؟ ألا إن داءكم الذنوب، ودواءكم الاستغفار**»(٢٥). ورُوي عن قتادة من قوله. قال الحافظ المنذري رحمه الله: وهو أشبه بالصواب.

وروىٰ أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي، وصححه الحاكم؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هَمٍّ فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب**»(٢٦).

وروىٰ ابن ماجه بإسناد صحيح، والبيهقي؛ عن عبد الله بن بُسْرٍ رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**طوبىٰ لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا**»(٢٧).

وروىٰ البيهقي بإسناد لا بأس به عن البراء رضي الله عنه مرفوعًا: «**من أحب أن تسره صحيفته؛ فليكثر فيها من الاستغفار**»(٢٨).

---

(٢٥) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٦٤٦) وإسناده ضعيف، ولا يصح مرفوعًا.

(٢٦) حديث ضعيف: رواه أبو داود (١٥١٨) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٥٦) وابن ماجه (٣٨١٩) والحاكم (٤/ ٢٦٢) والبيهقي (٣/ ٣٥١).

(٢٧) حديث صحيح: رواه ابن ماجه (٣٨١٨) وصححه البوصيري والألباني.

(٢٨) حديث حسن: رواه البيهقيٰ في «شعب الإيمان» (٦٦٨) بإسناد حسن لابأس به كما قال المنذري في «الترغيب والترهيب»، ورواه الطبراني في «الأوسط» (٨٤٣) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢١١): «ورجاله ثقات». قلت: في رجاله تفصيلٌ بيَّنه الشيخ العلامة الألباني رحمه الله في «السلسلة =

وروىٰ أيضًا عن أنس مرفوعًا: «**إن للقلوب صدأً كصدأِ النحاس، وجلاؤها الاستغفار**»(٢٩).

وبالجملة؛ فدواء الذنوب الاستغفار.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «**شرح الأربعين النووية**»:

روينا من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا: «**إن لكل داء دواءً، وإن دواء الذنوب الاستغفار**»(٣٠).

وقال بعض العارفين: إنما معول المذنبين البكاء والاستغفار؛ فمن أهمته ذنوبه؛ أكثر لها من الاستغفار.

وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطلب من الصبيان الاستغفار، ويقول: - إنكم لم تذنبوا.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول لغلمان الكُتَّاب: قولوا: اللهم اغفر لأبي هريرة - فيؤمِّنُ علىٰ دعائهم.

قال أبو بكر المزني رَحِمَهُ اللَّهُ : لو أن رجلًا يطوف علىٰ الأبواب كما يطوف المسكين، يقول: استغفروا لي. لكان قوله أن يُفْعَل، ومن كثرت ذنوبه وسيئاته حتىٰ فاقت العد والإحصا؛ فليستغفر الله مما علم الله؛ فإن الله قد علم كل شيء وأحصاه؛

= الصحيحة » (٢٢٩٩).

(٢٩) حديث موضوع: رواه الطبراني في «الصغير» (١/ ١٨٤)، وهو في «السلسة الضعيفة» (٢٢٤٢) .

(٣٠) لا يصح مرفوعًا: رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٤٢،٢٤١) موقوفًا، وفي إسناده بشار بن الحكم، وهو منكر الحديث.

كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

وفي حديث شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**أسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم؛ إنك أنت علام الغيوب**»(٣١).

مطلب

الدعاء في موضعه أفضل من غيره

وقال الإمام المحقق ابن القيم رحمه الله في كتابه «**الكلم الطيب والعمل الصالح**»: قراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، هذا من حيث النظر إلىٰ كل منهما مجردًا، وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولىٰ من الفاضل، بل يعيِّنه؛ فلا يجوز أن يُعدل عنه إلىٰ الفاضل.

قال: كالتسبيح في الركوع والسجود؛ فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما، بل القراءة فيهما منهيٌ عنها، وكذا التسميع والتحميد في محلهما أفضل من القراءة، وكذلك التشهد، وكذلك: «**رب اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني**» بين السجدتين أفضل من القراءة، وكذلك الذكرُ عقب السلام؛ من التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد أفضلُ من الاشتغال عنه بالقراءة، وكإجابة المؤذن والقول كما يقول، وإن كان فضل القرآن علىٰ كل كلام كفضل الله علىٰ خلقه، لكن لكل مقام مقال، متىٰ فات مقاله فيه، وعُدِلَ عنه إلىٰ غيره؛ اختلت الحكمة، وفُقِدَت المصلحة

---

(٣١) حديث ضعيف: رواه النسائي (٣/ ٥٤) وأحمد (٤/ ١٢٣، ١٢٥) والترمذي (٣٤٠٧) وضعفه الألبانىٰ رحمه الله – وأما قول الحافظ ابن حجر رحمه الله بعد سياق طرقه في «نتائج الأفكار في تخريج الأذكار» – قال: وهذه طرق يُقَوّي بعضها بعضًا يمتنع معها إطلاق القول بضعف الحديث، وإنما صححه ابن حبان والحاكم لطريقتهما في عدم التفرقة بين الصحيح والحسن.اهـ؛ ففيه نظرٌ، والله أعلم.

المطلوبة منه.

وهكذا الأذكار المقيَّدة بحالٍ مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة، والقراءة أفضل من الأذكار المطلقة، اللهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر والدعاء أنفع له من قراءة القرآن، ومثاله أن يتفكَّر في ذنوبه فيحدث ذلك توبةً واستغفارًا، أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن فيعدل إلىٰ الأذكار والدعوات التي تحفظه وتحوطه، وكذلك قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة أو ذِكْر لم يحضر قلبه فيهما، وإذا أقبل علىٰ سؤالها والدعاء إليها؛ اجتمع قلبه كله علىٰ الله، وأحدث له تضرعًا وخشوعًا وابتهالًا؛ فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع له، وإن كان كلٌّ من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجرًا.

وهذا باب نافع يحتاج إلىٰ فقه نفس، وفرقان بين فضيلة الشيء في نفسه وبين فضيلته العارضة؛ فيعطىٰ كل ذي حق حقه، ويضع كل شيء في موضعه، وحفظ المراتب من تمام الحكمة التي هي نظام الأمر والنهي، والله الموفق.

قال: وهكذا الصابون والأشنان أنفع للثوب في وقت التجمير، وماء الورد ونحوه أنفع له في وقت.

قال: وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يومًا: سئل بعض أهل العلم - قلت: وهو الإمام الحافظ ابن الجوزي-: أيما أنفع للعبد؛ التسبيح، أو الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقيًّا؛ فالبخور وماء الورد أنفع له، وإن كان دنسًا؛ فالصابون والماء

الحار أنفع له. فقال لي رَحِمَهُ اللَّهُ : فكيف؛ والثياب لا تزال دنسة؟[٣٢] والله أعلم.

المقصد الثالث

حديث الدواوين الثلاثة

مطلب

في ذكر حديث الدواوين وبيان معانيه

اعلم أن الظلم عند الله يوم القيامة له ثلاثة دواوين كما قاله ﷺ؛ كما في «**مسند الإمام أحمد**» من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**ديوان لا يغفر الله سبحانه منه شيئًا، وهو ديوان الشرك به سبحانه؛ فإن الله لا يغفر أن يشرك به، وديوان لا يترك الله منه شيئًا، وهو ظلم العباد بعضهم بعضًا؛ فإن الله سبحانه يستوفيه كله، وديوان لا يعبأ الله به شيئًا، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه** عَزَّ وَجَلَّ»؛ فهذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محوًا[٣٣] فإنه يُمحَىٰ بالتوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المُكفِّرة... ونحو ذلك؛ بخلاف ديوان الشرك؛ فإنه لا يُمحَىٰ إلا بالتوحيد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : كفارة الشرك التوحيد، والحسنات يذهبن السيئات.

---

(٣٢) يعنىٰ أن التسبيح أنفع للعبد المحسن، والاستغفار أنفع للعبد المسيء.

(٣٣) حديث ضعيف: رواه أحمد في «مسنده» (٦/ ٢٤٠) من طريق صدقة بن موسىٰ، عن أبي عمران الجوني، عن يزيد بن بابنوس، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا، وصححه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٧٥) وتعقبه الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «صدقه»: ضعفوه، و«ابن بابنوس» فيه جهالة.اهـ. والحديث ضعفه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «التعليق علىٰ شرح الطحاوية» وغيره.

قال ابن مفلح رَحِمَهُ اللَّهُ في «**الآداب الكبرىٰ**»: قال في «**نهاية المبتدي**»: قيل: تحبط الصغائر بثواب المرء إذا اجتنب الكبائر، وهو الذي ذكره ابن عقيل في «**الانتصار**» وهو ظاهر ما ذكره جماعة من المفسِّرين ـ منهم ابن الجوزي ـ لظاهر قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

قال الإمام المحقق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : ديوان المظالم لا يُمحىٰ إلا بالخروج منها إلىٰ أربابها، واستحلالهم منها، ولمَّا كان الشرك أعظم الدواوين الثلاثة عند الله؛ حرم الله الجنة علىٰ أهله؛ فلا تدخل الجنة نفس مشركة، وإنما يدخلها أهل التوحيد؛ فإنه مفتاح بابها؛ فمن لم يكن معه مفتاح؛ لم يفتح له بابها.

وكذلك إن أتىٰ بمفتاح لا أسنان له؛ لم يُمكن الفتح به، وأسنان هذا المفتاح هي: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وبر الوالدين؛ فأي عبد اتخذ في هذه الدار مفتاحًا صالحًا من التوحيد، وركب فيه أسنانًا من الأوامر؛ جاء يوم القيامة إلىٰ باب الجنة ومعه مفتاحها الذي لا يفتح إلا به، فلم يُعِقْهُ عن الفتح عائق.

إلا أن تكون له ذنوب وخطايا وأوزار لم يذهب عنه أثرها في هذه الدار بنحو التوبة والاستغفار؛ فإنه يحبس عن الجنة حتىٰ يتطهر من درنه ووسخه، ثم يخرج من النار، فيدخل دار القرار؛ فإنها الدار الطيبة، التي لا يدخلها إلا الطيبون؛ كما جاء في القرآن المبين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

أما النار؛ فإنها دار الخبث في الأقوال والأعمال والمآكل والمشارب، ودار الخبيثين، والحق جل شأنه يجمع الخبيث بعضه علىٰ بعض، فيركمه كما يركم

الشيء المتراكب بعضه علىٰ بعض، ثم يجعله في جهنم مع أهله؛ فليس فيها إلا خبيث.

ولمَّا كان الناس علىٰ ثلاث طبقات: طيب لا يشوبه خبث، وخبيث لا طيب فيه، وآخرون فيهم خبث وطيب؛ كانت دورهم ثلاثة: دار الطيب المحض، ودار الخبث المحض، وهاتان الداران لا يفنيان[٣٤]، ودار لمن معه خبث وطيب، وهي الدار التي تفنىٰ، وهي دار العصاة؛ فإنه لا يبقىٰ في جهنم من عصاة الموحدين أحد؛ لأنهم إذا عذبوا بقدر جرائمهم؛ أخرجوا من النار، فأدخلوا الجنة، ولا يبقىٰ إلا دار الطيب المحض، ودار الخبث المحض، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

المقصد الرابع

في سبب تسمية هذا الدعاء بـ «سيد الاستغفار»

ولِمَ استحق هذه السيادة على سائر صيغ الاستغفار؟!

مطلب

ذكر سبب تسمية سيد الاستغفار بهذا الاسم

واعلم أن السيد يطلق علىٰ من ساد قومه، يسودهم سادة وسودة وسيدودة؛ فهو سيدهم، وهم سادة.

قال الراغب: والسيد: المتولي للسواد؛ أي: الجماعة، ولمَّا كان من شرط

---

(٣٤) وهذا الكلام يُبْطل قول مَن فهم مِن كلام ابن القيم أن النار تفنىٰ، فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ لم يطلق القول بذلك كما هو صريح ههنا، وإنما قال بفناء النار التىٰ يدخلها المسلمون ثم يخرجون منها.

المتولي للجماعة أن يكون مهذَّب النفس؛ قيل لكل من كان فاضلًا في نفسه: سيد، وعلىٰ ذلك قوله تعالىٰ في حق يحيىٰ عليه السلام: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾.

قال في «**النهاية**»: يطلق السيد علىٰ الرب، والمالك، والشريف، والفاضل، والزعيم، والكريم، والحليم الذي لا يستفزه غضبه، ومتحمل الأذىٰ من قومه، والزوج، والرئيس، والمقدم.

وورد في حديثٍ: «**كل بني آدم سيد؛ فالرجل سيد أهل بيته، والمرأة سيدة أهل بيتها**»(٣٥).

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود في «**سننه**» عن بريدة رضي الله عنه مرفوعًا: «**لا تقولوا للمنافق: سيد! فإن كان سيدكم، وهو منافق؛ فحالكم دون حاله، والله لا يرضىٰ لكم ذلك**»(٣٦).

واختلف الناس في إطلاق السيد علىٰ البشر:

فمنعه قوم، ونُقل عن مالك، واحتجوا بأنه ﷺ لما قيل له: يا سيدنا؛ قال: «**إنما السيد الله**»(٣٧).

---

(٣٥) حديث صحيح: رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٨٨) وابن عديٍّ في «الكامل» (١/ ١٨٢)، (٤/ ٢٠٤) وذكره الذهبي في «السير» (١٢/ ٦٣) وقال: هذا حديث صالح الإسناد غريب، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله.

(٣٦) حديث حسن: رواه أبو داود (٤٩٧٧) وفي إسناده قتادة بن دعامة السدوسي وهو ثقة مشهور، لكنه يدلِّس ولم يصرح بالسماع، فإسناده ضعيف.

ورواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣١١) وفي إسناده عقبة الأصم، وهوضعيف.

والحديث من الطريقين معًا حسن، وراجع «السلسلة الصحيحة» (٣٧١) للألباني رحمه الله.

(٣٧) حديث صحيح: رواه أبوداود (٤٨٠٦) وصححه جماعة كما ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله في «=

وجوزه الأكثرون محتجين بالقرآن وبالأحاديث الصحيحة؛ كقوله ﷺ علىٰ المنبر ـ كما في «**البخاري**» وغيره ـ وجعل ينظر إلىٰ الناس مرة، وإلىٰ الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما مرة - ويقول له: «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**»(٣٨).

وفي «**الصحيح**»(٣٩) عن عمر رضي الله عنه؛ أنه كان يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا - يعني: بلالًا .

وقول النبي ﷺ للأنصار: «**قوموا إلىٰ سيدكم**»(٤٠).

وفي «**صحيح مسلم**»(٤١) عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال: يا رسول الله، أرأيت الرجل يجد مع امرأته رجًلا؛ أيقتله؟... الحديث. فقال ﷺ: «**انظروا إلىٰ ما يقول سيدكم**»!!.

وما في الحديث أنه قيل له ﷺ: من السيد؟ قال: «**يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام**». قالوا: فما في أمتك سيد؟ قال: «**بلىٰ، من آتاه الله مالًا، ورُزق سماحة، فأدَّىٰ شكره، وقلَّت شكايته في الناس**»(٤٢).

❁ ❁ ❁

=

فتح الباري» (٥/ ١٧٩) وصححه الشيخ الألباني رحمه الله .

(٣٨) رواه البخاري في «صحيحه» (٢٧٠٤).

(٣٩) رواه البخاري في «صحيحه» (٢٧٠٤).

(٤٠) رواه البخاري في «صحيحه» (٢٧٠٤).

(٤١) «صحيح مسلم» (١٠/ ١٣١،١٣٠) .

(٤٢) حديث ضعيف: ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٠٥) وضعفه.

مطلب

سيادة رسول الله ﷺ على البشر

وقوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(٤٣)؛ إخبارًا عما أكرمه الله تعالىٰ به من الفضل والسؤدد، وتحدثًا بنعمة الله عنده، وإعلامًا لأمته؛ ليكون إيمانهم به علىٰ حسبه وموجبه، لهذا أتبعه بقوله: «**ولا فخر**»؛ أي: إن هذه الفضيلة التي نلتها كرامة من الله تعالىٰ لم أنلها من قِبَلِ نفسي، ولا بقوتي؛ فليس لي أن أفتخر بها.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سُمِّي الزوج سيدًا؛ لسياسته زوجته.

فثبت بما ذُكر إطلاق السيد علىٰ البشر، وهذا صار الآن كالإجماع.

ويُحمل حديث المنع إن صح؛ أنه ﷺ قال ذلك تواضعًا، وكراهة لمدحه في وجهه ﷺ.

وأما قوله ﷺ: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»؛ مع أنه سيدهم في الدنيا ويوم القيامة؛ فإنه أشار به إلىٰ انفراده بالسؤود فيه والشفاعة العظمىٰ دون غيره إذا لجأ الناس إليه في حوائجهم ومهماتهم، فكان ﷺ حينئذ سيدًا منفردًا بين البشر، لم يزاحمه أحد في ذلك ولا ادَّعاه؛ فهو كقوله تعالىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ مع أنه مالك الدنيا ويوم الدين، وقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ مع أن الملك له في الدنيا والآخرة، ولكن لَمَّا انقطعت في الآخرة دعوىٰ المدعين للملك في الدنيا، وكذلك لجأ الناس إلىٰ سيدنا محمد في العقبىٰ، حتىٰ تدافع أولو العزم للشفاعة من

---

(٤٣) «صحيح البخاري» (٣٣٤٠) «وصحيح مسلم» (٢٢٧٨).

آدم إلىٰ نوح إلىٰ إبراهيم إلىٰ موسىٰ إلىٰ عيسىٰ، حتىٰ انتهت إلىٰ سيد المرسلين وخاتم النبيين وحبيب رب العالمين، فصلح تخصيصه بالسيادة في ذلك اليوم، وإن كان هو سيد العالم دنيا وحشرًا وعقبىٰ.

واللائق من هذه المعاني علىٰ أن الدعاء سمي : «سيد الاستغفار»؛ لأنه فاضل، والفاضل سيد المفضول. وقال في «**المطلع**» : السيد هو الذي يفوق في الخير قومه، ويرتفع عليهم. قاله الزجاج والنووي.

مطلب

سبب تسمية الدعاء بسيد الاستغفار

فعلىٰ هذا سمي هذا الدعاء سيد الاستغفار؛ لأنه قد فاق سائر صيغ الاستغفار في الفضيلة، وارتفع عليها. وقال جلال الدين السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ : قال الطيبي : لمَّا كان الدعاء جامعًا لمعاني التوبة اسْتعير له السَّيد. انتهىٰ

مطلب

ذكر أفضلية هذا الدعاء على غيره من الأدعية

مجمل معاني الدعاء:

ووجه أفضلية هذا الدعاء علىٰ غيره من صيغ الاستغفار :

١ـ أنه بدأ فيه بالثناء علىٰ الله بعد بدايته بـ «**اللهم**» التي هي بمعنىٰ: يالله التي معناها : أدعو الله.

٢ـ ثم خاطب الباري جل وعلا؛ استشعارًا بشدة القرب، واستغراقًا في مقام

المشاهدة.

٣ـ ثم اعترف بأنه مربوب مفعول للرب الفاعل دون غيره.

٤ .ثم اعترف بأنه لا إله غيره معبود بحق إلا هو سبحانه؛ فأتىٰ بما يشعر بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلوهية.

٥ ـ ثم اعترف بالعبودية الخالصة له سبحانه، وأنه مقيم علىٰ الوعد ثابت علىٰ العهد؛ من الإيمان به، وبكتابه، وبسائر أنبيائه ورسله.

٦ ـ ثم استدرك علىٰ نفسه أنه مقيم علىٰ ذلك بحسب طوقه واستطاعته؛ لأنه أعجز وأقل وأضعف من تأدية الربوبية حقها، والقيام علىٰ العهد والوعد من غير انحراف ما.

٧ ـ ثم أنه استعاذ به سبحانه من شر كل ما صنع من التقصير في القيام بما يجب عليه من شكر الإنعام، ومن ارتكاب الآثام.

٨ ـ ثم أقر واعترف بترادف نعمته عليه وبما يصيبه من الذنوب والمعاصي.

٩ ـ ثم سأله سبحانه المغفرة من ذلك كله؛ معترفًا بأنه لا يغفر الذنوب سواه سبحانه وتعالىٰ.

ففي ضمن ذلك ما هو ثناء علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ بجميل أوصافه وآلائه؛ من عدم معاجلته بالعقوبة، ومن إيصاله الرزق إليه، وحفظه من المصائب والبلايا، ومن شياطين الإنس والجن.

وذكر الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في «**ذيل طبقات الأصحاب**» : أن بعض الناس

رأىٰ الحافظ أبا موسىٰ عبد الله ابن الحافظ عبد الغني المقدسي العلم المشهور في المنام، وكان الرائي من أصحاب الحافظ، فسأله الرائي، فقال له: أوصيك بالدعاء الذي حفظتك إياه؛ فاحفظه. فقال له : ما بقيت أحفظه. فقال له : هو مكتوب في الورقة التي كتبتها لك؛ فما نفعني الله إلا به، وكان الدعاء : «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك** ... » الحديث انتهىٰ.

مطلب

في آداب الداعي وما ينبغي أن يكون حاله

آداب الدعاء المستحبة :

والمستحب في الدعاء أن يبدأ الداعي بالثناء علىٰ الله بين يدي حاجته، ثم يسأل حاجته؛ كما في دعاء ذي النون الذي قال فيه النبي ﷺ: «**دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلا فرَّج الله كربه: لا إله إلا أنت سبحانك؛ إني كنتُ من الظالمين**»(٤٤).

وفي الترمذي: «**دعوة أخي ذي النون؛ إذا دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت، سبحانك؛ إني كنت من الظالمين؛ فإنه لم يدع بها مسلم في شيء قط؛ إلا استجاب الله له**»(٤٥).

وهكذا عامة أدعية النبي ﷺ:

كما في دعاء الكرب: «**لا إله إلا الله ، العلي العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب**

---

(٤٤) حديث صحيح: رواه الترمذي (٣٥٠٥) وفي إسناده اختلاف لا يضر كما بيَّنه الترمذي، وصححه الشيخ الألباني.

(٤٥) هو نفسه الحديث السابق

العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم»[٤٦].

وفي «**السنن**» و «**صحيح ابن حبان**»؛ أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يدعو، وهو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده؛ لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطىٰ**»[٤٧].

وفي «**سنن أبي داود**» و «**النسائي**»:

عن أنس رضي الله عنه؛ أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا، ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام؛ يا حي؛ يا قيوم؛ فقال النبي ﷺ: «**لقد دعا الله باسمه العظيم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطىٰ**»[٤٨].

فأخبر ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه ثناء وذكر، والثناء عليه سبحانه أنجع ما طلب به العبد حوائجه؛ فلا جرم أنَّ الدعاء الذي يتقدمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلىٰ الإجابة من الدعاء المجرد، ولاسيما إذا كان بمثل هذه الجمل الجامعة والكلمات المتضمنة لتوحيد ربوبيته.

---

(٤٦) «صحيح البخارىٰ» (٢٦٤٥)، «وصحيح مسلم » (٢٧٣٠).

(٤٧) حديث صحيح: رواه أبو داود (١٤٩٣) والترمذىٰ (٣٤٧٥) وابن ماجه (٣٨٥٧) وابن حبان (٨٩١،٨٩٢) وصححه الشيخ الألباني.

(٤٨) نفسه الحديث السابق

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحال المستحبة للداعي عند ذكره لسيد الاستغفار:

وقد انضاف إلىٰ ذلك إخباره بعبوديته، وحاله، ومسكنته، وافتقاره، واعترافه بالنعم المتواصلة، وذنوبه المتراسلة، وأنه لا يغفر زلته ولا يقيل عثرته إلا هو سبحانه[٤٩].

---

(٤٩) ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «بدائع الفوائد» (٣/ ٦-٩) بعض آداب الداعي ومنها إخفاء الدعاء.

فقال رَحِمَهُ اللَّهُ : وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانًا لأن صاحبه يعلم أن الله تعالىٰ يسمع دعاءه الخفي وليس كالذي قال أن الله يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا.

ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تخاطب الملوك، ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع وصوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلىٰ، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي، فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء، ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه وخشع صوته، حتىٰ إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعته إلىٰ أن ينكسر لسانه، فلا يطاوله بالنطق، فقلبه سائل طالب مبتهل، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت، وهذه الحالة لا يتأتىٰ معها رفع الصوت بالدعاء أصلًا.

رابعها: أنه أبلغ في الأخلاص .

خامسها: أنه أبلغ في جمعه القلب علىٰ الله تعالىٰ في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته، فكلما خفض صوته كان أبلغ في صمده، وتجريد همته، وقصده للمدعو سبحانه وتعالىٰ.

سادسها: وهو من النكت السرية البديعة جدًّا أنه دال علىٰ قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسألة مسألة مناجاة للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد.

سابعها: أنه أدعىٰ إلىٰ دوام الطلب والسؤال فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعًا صوته فإنه لا يطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته.

ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات فإن الداعي إذا أخفىٰ دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبيثة من الجن والأنس فشوشت عليه ولا بد ومانعته وعارضته ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفىٰ ومن له تجربة يعرف هذا فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

=

فقد توسل إلىٰ معبوده وإلهه وخالقه بصفات كماله وإحسانه وفضله وامتنانه، وصرَّح بشدة فاقته وحاجته وضرورته وفقره، وتلطُّخه بمعصية مَن هو خالقه ورازقه وحافظه ومعينه؛ فاجتمع المقتضي من السائل، والمقتضي من المسئول في الدعاء؛ فكان أجدر بالإجابة، وأحرىٰ بأن يُسَمَّىٰ بـ «**سيد الاستغفار**»؛ لأنه ألطف موقعًا، وأتم معرفة وعبودية.

وأنت ترىٰ في الشاهد ـ ولله المثل الأعلىٰ. أن الرجل إذا توسل إلىٰ من يريد معروفه بكرمه وجوده ، وذكر حاجته وفقره ومسكنته؛ كان أعطف لقلب المسئول، وأقرب إلىٰ قضاء حاجته منه.

فإذا قال له: أنت جودك قد سارت به الرُّكبان، وفضلك كالشمس لا يُنْكَرُ في العيان، ومعروفك قد عم البلدان، وقد بلغت بي الحاجة والضرورة مبلغًا لا صبر معه..... ونحو ذلك؛ كان ذلك أبلغ في قضاء حاجته من أن يقول له ابتداءً: أعطني كذا وكذا!

=

تاسعها: إن أعظم النعم الإقبال علىٰ الله والتعبد له والانقطاع إليه والتبتل إليه ولكل نعمة حاسد علىٰ قدرها دقت أو جلت ولا نعمة أعظم من هذه النعمة فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد وأن لا يقصد إظهارها له.

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال علىٰ الله فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين وهذه فائدةشريفة نافعة.

عاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه فهو ذكر وزيادة كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب كما قال النبي ﷺ : «أفضل الدعاء الحمد لله» فسمىٰ الحمد لله دعاء وهو ثناء محض لأن الحمد يتضمن الحب والثناء والحب أعلىٰ أنواع الطلب للمحبوب فالحامد طالب لمحبوبه فهو أحق أن يسمىٰ داعيا من السائل الطالب من ربه حاجة ما فتأمل هذا الموضع ولا تحتاج إلىٰ ما قيل ان الذاكر متعرض للنوال وإن لم يكن مصرحا بالسؤال فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرض.

فإذا عرفت هذا؛ فتأمل قول أبينا آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وقول موسىٰ عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وقول ذي النون المتقدم.

وفي «**الصحيحين**»(٥٠)؛ أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله علمني دعاءً أدعو به في صلاتي. فقال: «**قل: اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كبيرًا، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت؛ فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني؛ إنك أنت الغفور الرحيم**» وفي لفظ: «**ظلمًا كثيرًا**».

بعض أعداء الإنسان من نفسه وفي خلقه وشيطانه:

فجمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله، والتوسل إلىٰ ربه بفضله وجوده، وأنه المنفرد بغفران الذنوب؛ فهو كدعاء سيد الاستغفار؛ فإنه جمع فيه بين مشاهدة المنة، ومطالعة عيب النفس والعمل؛ حيث قال: «**أبوء**»؛ أي: أعترف لك بنعمتك عليَّ؛ فهذه مشاهدة المِنَّة، «**وأبوء بذنبي**»؛ فهذه مطالعة عيب النفس، ثم سأل الله سبحانه المغفرة من ذنوبه والإقالة من عيوبه وحوبه؛ فما أحراهُ بإجابة دعاه! وما أولاه بقبول مولاه إياه ومغفرة ذنوبه وخطاياه! حيث إنه استقاله مما اجتناه، واستغفره مما ارتكبه وأتاه؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ قد ابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة، وابتلاه بعدوه إبليس؛ لا يَفْتُرُ عنه؛ فهو يدخل عليه من الأبواب التي هي من نفسه وطبعه، فتميل نفسُه معه؛ لأنه يدخل عليها بما تحب، فاتفق هو ونفسه وهواه، ثلاثة علىٰ العبد مُسَلَّطون آمرون، فيبعثون الجوارح في قضاء وطرِهِم،

(٥٠) «صحيح البخاري» (٨٣٤)، و«صحيح مسلم» (٢٧٠٥).

والجوارح آلة منقادة؛ فلا يمكنها إلا الأنْبِعَاث؛ فهذا شأن هذه الثلاثة، ولها رابع، وهي: الدنيا.

ومن هذا ما نُسب للإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

إنِّـــي بُلِيـــتُ بِـــأَرْبَعٍ يرميننـــي ... بالنبـــل عـــن قـــوس لهـــا تـــوتير
إبلـــيس والـــدنيا ونفســـي والهـــوى ... مـــن أيـــن لـــي مـــن شـــرهن نصـــير؟؟

وينسب من ذلك أيضًا لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

إنـــي بليـــت بـــأربع يرميننـــي ... بالنبـــل مـــن قـــوس لهـــا إشـــراك
إبلـــيس والـــدنيا ونفســـي والهـــوى ... مـــن أيـــن يرجـــى للضـــعيف فكـــاك؟؟

وللفقير من ذلك في ذلك:

إنـــي بليـــت بـــأربع يرميننـــي ... بالنبـــل مـــن قـــوس لهـــا أوتـــار
إبلـــيس والـــدنيا ونفســـي والهـــوى ... هـــل للفتـــى مـــن بيـــنهن فـــرار
يـــا رب عـــاملني بلطفـــك واحمنـــي ... ممـــا أخـــاف فـــإنني محتـــار
نفســـي التـــي تبغـــي الشـــفا بمرادهـــا ... وبـــه النـــوى وهلاكهـــا والعـــار
يـــا حـــافظ الملكـــوت كـــن لـــي حافظًـــا ... مـــن شـــرها يـــا رب يـــا ســـتار[٥١]

ما سخر الله لحماية الإنسان من هواه وشيطانه:

ولما ابتلىٰ سبحانه عبده بما ابتلاه؛ أعانه بجند آخر، وأمده بمدد آخر، يقاوم به

(٥١) «الستار»: ليس من أسماء الله الحسنىٰ، فلم يثبت في الكتاب ولا السنة، ويغني عنه ما رواه أبو داود في «سننه» (٣٤٩٧) «إن الله حيي سَتِير» وهو حديث صحيح، وقوله: «ستير» علىٰ وزن «عظيم، ورحيم، وكريم».

ما ابتلاه به مما يريد هلاكه: فأرسل إليه رسوله وأنزل عليه كتابه وأيده بملك كريم يقاتل عدوه الشيطان؛ فإذا أمره الشيطان بأمره؛ أمره الملك بأمر ربه، وبين له في طاعة العدو من الهلاك؛ فهذا يُلم به مرة، وهذا يَلُمُّ به مرة، والمنصور من نصره الله تعالىٰ.

وجعل له مقابلة نفسه الأمارة نفسًا مطمئنة، وجعل له مقابلة الهوىٰ الحامل له علىٰ طاعة الشيطان والنفس الأمارة نورًا وبصيرةً وعقلا يرده عن الذهاب مع الهوىٰ، فإذا فرط منه زلة؛ استدرك ذلك بالتوبة والاستغفار، والرجوع من الفرار، والله تعالىٰ يقبل من أقبل، ويتوب علىٰ من تاب وتنصَّل، والله الموفق.

مطلب

في بداية شرح سيد الاستغفار والكلام على الاستغفار والمغفرة:

وهذا أول الشروع في المقصود، ولله الحمد والمنة:

❁ **قوله** ﷺ: «**سيد الاستغفار**»: تقدم قريبًا أن السيد يطلق علىٰ الفاضل؛ أي: أعظم صيغ الاستغفار، وأفضلها، وأجمعها للمعاني الموجبة لغفران الذنوب.

فهذه السيادة باعتبار ما جَمَعَتْهُ من المعاني التي أشرنا إلىٰ بعضها آنفًا، ومن المعلوم أنه لا يوجد في «**اللهم اغفر لي**» و «**أستغفر الله**» ونحو ذلك ما في هذا الدعاء من تقديم الاعتراف بالربوبية وتوحيدها والإلهية، والخلق والعبودية، والتمسك بالعهد والوعد علىٰ حسب الاستطاعة، والاعتراف بالنعم، والإقرار بالذنوب واللمم، ثم طلبُ المغفرة.

والاستغفار: استفعال، والسين فيه للطلب؛ أي: طلب المغفرة؛ يعني: سيد

صِيغ طلب المغفرة.

ومن أسمائه سبحانه وتعالىٰ: «الغفَّار» و«الغفور»، وهما من أَبْنية المبالغة، ومعناهما: الساتر لذنوب عباده وعيوبهم، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم.

وأصل الغفر: التغطية، يقال: غفر الله لك يغفر غفرًا، وغفرانًا، ومغفرةً، والمغفرة: إلباس الله سبحانه وتعالىٰ العفو للمذنبين من عباده.

۞ قوله كما في بعض النسخ: «**أن يقول**»؛ أي: الداعي وطالب المغفرة والإقالة من الذنوب؛ أي: أفضل صيغ الاستغفار: قوله..... إلخ.

تركيب كلمة اللهم ومعناها:

۞ **قوله** ﷺ: «**اللهم**....» إلخ: لا خلاف عند البصريين أن لفظة «اللهم» معناها: يا الله، ولهذا لا تستعمل إلا في الطلب، فلا يقال: اللهم غفور رحيم، بل يقال: اغفر لي وارحمني.

واختلف النحاة في الميم المشددة من آخر الاسم: فقال سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ: زيدت عِوضًا من حرف النداء، ولذا لا يجوز عندالبصريين الجمع بينهما في اختيار الكلام، فلا يقال: يا اللهم، قال البدر بن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في «**ألفيَّته**»:

والأكثر اللهم بالتعويض وشذ يا اللهم في قريض

قال الأشموني رَحِمَهُ اللَّهُ : الأكثر في نداء اسم الله تعالىٰ أن يحذف حرف النداء، ويقال: اللهم؛ بتعويض الميم المشددة عن حرف النداء، وشذ الجمع بين الميم وحرف النداء في الشعر، وذكر قول الشاعر: إنِّي إذا ما حدثٌ....إلخ.

وقال الإمام المحقق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «**جلاء الأفهام في فضل الصلاة**

والسلام علىٰ خير الأنام»:

ويسمىٰ ما كان من هذا الضرب عِوضًا؛ إذ هو في غير محل المحذوف؛ فإن كان في محله؛ يسمىٰ بدلًا؛ كالألف في قام وباع؛ فإنها بدل عن الواو والياء.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ :

ولا يجوز عند سيبويه أن يوصف هذا الاسم أيضًا، فلا يقال: اللهم الرحيم ارحمني، ولا يُبدَلُ منه، والضمة التي علىٰ «الهاء» ضمة الاسم المنادىٰ المفرد، وفتح الميم لسكونها وسكون الميم التي قبلها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : وهذا من خصائص هذا الاسم، كما اختص بالتاء في القسم، ويدخل حرف النداء عليه مع لام التعريف، وبقطع همزة وصْلِهِ في النداء، وتفخيم لامه وجوبًا غير مسبوقة بحرف إطباق، هذا ملخص مذهب الخليل وسيبويه.

وقيل: الميم عِوض عن جملة محذوفة، والتقدير: يا الله! أمَّنَّا بخير؛ أي: اقصدنا، ثم حُذف الجار والمجرور، وحُذِفَ المفعول، فبقي في التقدير: يا الله أم، ثم حذفنا الهمزة لكثرة دوران هذا الاسم في الدعاء علىٰ ألسنتهم، فبقي: يا اللهم، وهذا قول الفراء.

قال الأشموني: مذهب الكوفيين أن الميم في «اللهم» بقية جملة محذوفة، وهي: أمَّنا بخير، وليس عوضًا عن حرف النداء؛ فلذلك أجازوا الجمع بينهما في الاختيار.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وصاحب هذا القول يُجَوِّز دخول ياء عليه، ويحتج بقول الشاعر:

أقـــول يـــا اللهـــم يـــا اللهمـــا أُرِدْ علينـــا شـــيخنا مُسَـــلَّمًا

وبالبيت المتقدم وغيره.

وردَّ البصريون هذا بوجوه:

أحدها: أن هذه التقادير لا دليل عليها، ولا يقتضيها القياس؛ فلا يصار إليها.

الثاني: أن الأصل عدم الحذف.

الثالث: أن الداعي بهذا قد يدعو بالشر علىٰ نفسه وعلىٰ غيره؛ فلا يصح هذا التقدير فيه.

ولأن العرب لم تجمع بين «يا» و«اللهم» في فصيح الكلام، وأنه من الجائز أن يقول الإنسان: اللهم أَمِّنَّا بخير، ولو كان التقدير كما ذكره الكوفيون؛ لم يجز الجمع بين العوض والمعوض، ولأن الداعي بهذا الاسم لا يخطر ذلك بباله، وإنما غايته مجردة إلىٰ المطلوب بعد ذكر الاسم.

وأيضًا؛ لو كان التقدير كما زعموا؛ لكان اللهم جملة تامة يحسن السكوت عليها لاشتمالها علىٰ الاسم المنادىٰ وفِعْل الطلب، وذلك باطل.

وأيضًا، لو كان الأمر كما ذكروا؛ لكان يُكْتَبُ فِعْلُ الأمر وحده، ولم يوصل في الاسم المنادىٰ، كما يقال: ياالله قِهْ، ويا زيد عِهْ، ويا عمرو فِهْ؛ لأن الفعل لا يوصل بالاسم الذي قبله، فيجعلان في الخط كلمة واحدة.

وأيضًا؛ فإنه يسوغ استعمال هذا اللفظ في موضع لا يكون بعده دعاء؛ كقوله: «**اللهم لك الحمد، وإليك المشتكىٰ، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك**

التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[٥٢]، وقوله: «**اللهم إني أصبحت أشهدك**»[٥٣] إلخ، وقوله: «اللهم مالك المُلْك» إلخ ، وقول نبينا في أذكار ركوعه وسجوده وفي استفتاح صلاته : «**سبحانك اللهم وبحمدك**»[٥٤] . وقيل: زيدت الميم للتعظيم والتفخيم؛ كزيادتها في: «زرقم» لشديد الزرقة، و«ابنم» في الابن.

التناسب بين حروف اللفظ ومعناه:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : وهذا القول صحيح، لكنه يحتاج إلىٰ تتمة، وقائله لحَظَ معنىٰ صحيحًا لابد عن بيانه، وهو أن الميم تدل علىٰ الجمع وتقتضيه، ومخرجها يقتضي ذلك، وهذا مطرد علىٰ أصل من أثبت المناسبة بين اللفظ والمعنىٰ؛ كما هو مذهب أساطين العربية، وعقد له أبو الفتح ابن جِنِّي بابًا في «**الخصائص**»، وذكره عن سيبويه، واستدل بأنواع؛ منها: تناسب اللفظ والمعنىٰ، ثم قال: ولقد مكثتُ بُرهَةً يَرِدُ عليَّ اللفظ لا أعلم موضوعه، فآخذ معناه من قوة لفظه ومناسبة تلك الحروف لذلك المعنىٰ، ثم أكشفه، فأجده كما فهمتُهُ أو قريبًا منه.

مطلب

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ :

فحكيت لشيخ الإسلام - يعني: شيخه الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ طيب الله ثراه - فقال: وأنا كثيرًا ما يجري لي ذلك، ثم ذكر لي فصلًا عظيم النفع في التناسب بين

---

(٥٢) حديث ضعيف: رواه الطبراني كما في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٨٦)

(٥٣) حديث ضعيف: رواه أبو داود (٥٠٦٩) والترمذي (٣٥٠١).

(٥٤) حديث صحيح: رواه أبو داود (٧٧٥) والترمذي (٢٤٢).

اللفظ والمعنىٰ، ومناسبة الحركات لمعنىٰ اللفظ، وأنهم في الغالب يجعلون الضمة التي هي أقوىٰ الحركات للمعنىٰ الأقوىٰ، والفتحة الخفيفة للمعنىٰ الخفيف، والكسر المتوسط للمتوسط، فيقولون: عز يعَزُّ: إذا صلب، وأرض عزيزة: صلبة، ويقولون:عز يعِزُّ بالكسر: إذا امتنع، والممتنع فوق الصلب؛ فقد يكون الشيء صلبًا ولا يمتنع علىٰ كاسره، ثم يقولون: عزه يعُزُّه: إذا غلبه؛ قال تعالىٰ في قصة داود عليه السلام: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾، والغلبة أقوىٰ من الامتناع؛ إذ قد يكون الشيء ممتنعًا في أصله متحصنًا عن عدوه، ولا يغلب غيره؛ فالغالب أقوىٰ من الممتنع والمتوسط بين المرتبتين، فأعطوه الحركة الوسطىٰ.... إلىٰ ما لا يحصىٰ عدًّا.

والحاصل أن الميم حرف شفهيٌّ، يجمع الناطق به شفتيه، فوضعته العرب عَلَمًا علىٰ الجمع، فقالوا للواحد: هُو فإذا جاوزوه إلىٰ الجمع؛ قالوا: أنتم، وكذا: هُوَ وهُمْ، وضربت وضربتم، وإياه وإياهم، ونظائر ذلك.

وتأمل: لَمَّ الشيء يلمُّه بمعنىٰ: جمعه، ومنه: لَمَّ الله شعثه؛ أي: جمع ما تفرَّق من أموره، ومنه: دار لمومة؛ أي: تلم الناس وتجمعهم، ومنه: بدر التمام: إذا كمل، والتوءم للولدين المجتمعين في بطن، ومنه: الأم، وأُمُّ الشيء أصله الذي تفرع منه؛ فهو الجامع له، وبه سميت مكة: أم القرىٰ، والفاتحة: أم القرآن، واللوح المحفوظ: أم الكتاب، وفي «**الصحاح**» أُمُّ الشيء أصله، وأم مثواك: صاحبة منزلك؛ يعني: التي تأوي إليها وتجتمع معها، وأم الدماغ: الجلدة التي تجمع الدماغ، ويقال لها: أم الرأس، والأمة: الجماعة المتساوية في الخلقة والزمان؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، وفي الحديث المرفوع: «**لولا أن**

الكلاب أمة من الأمم، لأمرت بقتلها»[٥٥].

فإذا علم هذا من شأن الميم؛ فُهِم لُحوقها في آخر هذا الاسم الذي يُسأل الله سبحانه به في كل حاجة وكل حال؛ إيذانًا بجمع أسمائه وصفاته؛ فالسائل إذا قال: اللهم إني أسألك. كأنه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحسنىٰ والصفات العليا بأسمائه كلها.

ولهذا قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ : «اللهم» مجمع الدعاء. وقال أبو رجاء العطاردي رَحِمَهُ اللَّهُ : إن الميم في قوله: «**اللهم**»: فيها تسعة وتسعون اسمًا من أسمائه. وقال النضر بن شميل رَحِمَهُ اللَّهُ : من قال: اللهم؛ فقد دعا الله بجميع أسمائه.

وقد وجَّه طائفة هذا القول بأن الميم هنا بمنزلة الواو، والدالة علىٰ الجمع من مخرجها؛ فكأن الداعي بها يقول: يا الله! الذي اجتمعت له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ : ولذلك شُددت؛ لتكون عوضًا عن علامتي الجمع، وهي الواو والنون في «مسلمون» ونحوه، وعلىٰ الطريقة الأولىٰ نفس الميم دالة علىٰ الجمع؛ فلا تحتاج إلىٰ هذا.

وقد علمت أن المذهب المنصوص ما عليه الخليل وسيبويه من البصريين.

تنبيهان:

الأول: قد تحذف «ال»؛ كقوله: «لا هم إن كنت قبلت حجتي» وهو كثير في

---

(٥٥) حديث صحيح: رواه أبو داود (٢٨٤٥) والترمذىٰ (١٤٨٦).

الشعر؛ كقوله:

لا هـــم لـــولا أنـــت مـــا اهتـــدينا ولا تصـــــــــدقنا ولا صـــــــــلينا

الثاني: قال في «**النهاية**»: تستعمل «اللهم» علىٰ ثلاثة أنحاء:

أحدها: النداء المحض.

ثانيها: أن يذكره المجيب تمكينًا للجواب في نفس السامع؛ كأن يقول لك القائل: أزيد قائم؟ فتقول: اللهم نعم، أو: اللهم لا.

ثالثها: أن تستعمل دليلًا علىٰ الندرة وقلة وقوع المذكور؛ نحو قوله: أنا أزورك، اللهم إذا لم تدعني. ألا ترىٰ أن وقوع الزيارة مقرونًا بعدم الدعاء قليل. انتهىٰ.

❁ «**أنت**»: ضمير خطاب منفصل مبنيٌّ، وهو أعرف المعارف بعد اسم الجلالة تعالىٰ وتقدس.

«**ربي**»: يا الله، لا غيرك، واسْتُفِيد الحصر من تعريف الطرفين.

والرب من أسمائه تعالىٰ، وهو في الأصل بمعنىٰ التربية، وهي تبليغ الشيء إلىٰ كماله شيئًا فشيئًا، ثم وُصِف به للمبالغة، وقيل: هو من رَبَّه يرُبُّه فهو ربٌّ؛ كنمَّ ينُمُّ فهو نَمٌّ، ثم سُمِّي به الملك؛ لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه، ولا يطلق علىٰ غيره تعالىٰ إلا مقيدًا؛ كقوله: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

قال في «**المطالع**»: أصل الرب المالك، ومنه رب العالمين، وقيل: القائم بأمورهم والمصلح لهم، ومنه قول ابن عباس رضي الله عنهما: «**لأن يرُبني بنو عمي - بضم الراء - أحبُّ إليَّ من أن يرُبني غيرهم**» أي: **يملكني ويدبر أمري ويصيروا لي أربابًا؛ أي: سادة وملوكًا.**

معنى: لا إله إلا أنت:

❁ «**لا إله**»: معبود بحق في الوجود «**إلا أنت**» يا الله؛ لأن كل معبود سواه باطل[٥٦]، وكل إله غيره جل شأنه عاطل.

والإله: «فِعال» بمعنىٰ مألوه، وكل مُتَّخَذٍ معبودًا أَلِهٌ عند مُتَّخِذِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ والتَّأَلُّه: التعبد والتنسك، والتأليه: التعبيد. وأَلِهَ: كَفَرِحَ: تحير، وسُمي به المعبود بحق؛ لأن الخلق تحيروا في كنه ذاته سبحانه وتعالىٰ. وكف عنان اللسان عن الكلام في اشتقاقه واشتقاق الاسم الكريم الذي هو الجلالة أليق بالأدب.

تنبيه: في قوله عليه الصلاة والسلام: «**اللهم أنت ربي لا إله أنت**»: إثبات لتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية؛ لأن قوله: «**اللهم أنت ربي**»؛ أي: لا غيرك؛ فليس لي رب ولا خالق سواك: توحيد الربوبية، ولهذا أعقبه بقوله: «**خلقتني**.....» إلخ، وقوله: «**لا إله إلا أنت**»: توحيد للإلهية؛ أي: ليس لي معبود ولا مألوه إلا أنت.

---

(٥٦) كما قال لبيد الجاهلي:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مطلب

في الكلام على أنواع التوحيد

والكلام في التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع:

أحدها: الكلام في الصفات: من كونه تعالىٰ حيًّا، موجودًا[٥٧]، عالمًا بجميع المعلومات، متكلمًا[٥٨]، سميعًا، بصيرًا، قادرًا، مريدًا[٥٩]...إلخ ما ورد في الكتاب والسنة من أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ.

والحديث يدل علىٰ ثبوت الصفات بطريق الالتزام؛ لأن الإله المعبود سبحانه لا يكون إلا كاملًا حيًّا قادرًا، والمتعطل عن الصفات الكمالية في غاية النقص؛ إذ هو بالجماد أليق، تعالىٰ الله وتنزه عن كل نقص وعيب[٦٠].

---

(٥٧) «الموجود» ليس من الأسماء الحسنىٰ، ويخطئ من يسمي ولده «عبد الموجود» ويجوز الإخبار عن الله به؛ لأن الله عز وجل له وجود، وباب الإخبار عن الله أوسع من باب التسمية التوقيفية.

(٥٨) «المتكلم» ليس من الأسماء الحسنىٰ، ويجوز الإخبار عن الله به؛ لأن باب الإخبار عن الله أوسع من باب التسمية التوقيفية.

(٥٩) «المريد» ليس من الأسماء الحسنىٰ، ويجوز الإخبار عن الله به؛ لأن باب الإخبار عن الله أوسع من باب التسمية التوقيفية.

(٦٠) هذه الطريقة التي تحدث عنها المصنف، هي إحدىٰ دلالات الأسماء والصفات علىٰ ذات الله تعالىٰ، فدلالة أسماء الله تعالىٰ علىٰ ذاته وصفاته تكون بالمطابقة وبالتضمن وبالالتزام. مثال ذلك: «الخالق» يدل علىٰ ذات الله وعلىٰ صفة الخلق بالمطابقة، ويدل علىٰ الذات وحدها، وعلىٰ صفة الخلق وحدها بالتضمن، ويدل علىٰ صفتي العلم والقدرة بالالتزام، ولهذا لما ذكر الله خلق السموات والأرض قال: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذه القاعدة في الواقع لا تختص بأسماء الله فقط، بل كل لفظ فإنه يدل علىٰ المعنىٰ بالمطابقة والتضمن والالتزام، وعليه فأنواع الدلالات ثلاثةٌ:

١ ـ دلالة المطابقة.

=

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الثاني: توحيد الربوبية: وهو أن الله سبحانه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال.

فهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام، وطائفة من الصوفية(٦١).

= ٢ ـ دلالة التضمن.

٣ ـ دلالة الالتزام.

أما دلالة المطابقة: فهي أن يدل اللفظ علىٰ جميع أجزاء معناه وأفراده. وأما دلالة التضمن؛ فمعناها: دلالة اللفظ علىٰ جزء معناه. وأما دلالة الالتزام؛ فمعناها: دلالة اللفظ علىٰ لازم خارج.

مثال ذلك: كلمة «السيارة» تدل علىٰ كل السيارة: هيكلها وماكيناتها وأنابيبها وإطاراتها وكل شيء فيها بالمطابقة، وتدل علىٰ الإطارات فقط بالتضمُّن، وتدل علىٰ البطارية فقط بالتضمن، وتدل علىٰ صانعها بالالتزام؛ لأن لها صانعًا، وهي لم تصنع نفسها.

مثال آخر: كلمة «الدار» تدل علىٰ كل الدار دلالة مطابقةٍ، وتدل علىٰ الحجرة أو الحمام أو المستراح دلالة تضمنٍ، وتدل علىٰ بانيها دلالة التزام.

واسم «الخالق» يدل علىٰ ذاتٍ وصفةٍ، فهو يدل علىٰ ذات الله ويدل علىٰ صفة الخلق، ودلالته علىٰ هذين المعنيين بالمطابقة، فدلالته علىٰ ذات الخالق بالمطابقة، ودلالته علىٰ الخلق وحده بالتضمن، ودلالته علىٰ العلم والقدرة بالالتزام، وبيان ذلك أن نقول: الخالق لا يمكن أن يخلق إلا وهو يعلم كيف سيخلق، والخالق لا يمكن أن يخلق إلا وهو قادرٌ علىٰ أن يخلق، ونحن نعلم أنه لو أراد أحدٌ أن يصنع شيئًا وهو لا يعلم، فإنه لا يستطيع، ولو كان يعلم ولا يريد فإنه كذلك لا يستطيع، إذًا فكلمة «صانع» تدلُّ علىٰ «ذاتٍ صانعةٍ» وتدل علىٰ «صنعٍ» وتدل علىٰ «علم» وتدل علىٰ «قدرة» فدلالتها علىٰ ذات الخالق وعلىٰ الصنع «دلالة مطابقة» ودلالتها علىٰ ذات الصانع فقط «دلالة تضمن» ودلالتها علىٰ الصنع وحده «دلالة تضمن» ودلالتها علىٰ العلم والقدرة «دلالة التزام» ولهذا لما خلق الله السماوات والأرض في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ قال بعد ذلك: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ أي: أن الله هو الخالق وقد خلق بقدرة وعلم، فلولا القدرة لما خلق، ولولا العلم لما خلق.

(٦١) يعني أن أهل الكلام والصوفية: غاية التوحيد عندهم هو توحيد الربوبية، فلا يعرفون توحيد الأسماء والصفات ولا توحيد الإلهية، ولذلك تجدهم ضالين في هذين النوعين ضلالًا كبيرًا. فرحم الله أهل السنة وسددهم ووفقهم إذ يجمعون بين أنواع التوحيد الثلاثة عقيدةً وعملًا.

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

=

اعتراف جميع الخلق بتوحيد الربوبية حتى القائلين بالأصلين:

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أعلىٰ الله مناره، وأبقىٰ علىٰ ممر الأيام آثاره ـ في كتابه «**شرح عقيدة الأصبهاني**»: وهذا التوحيد ـ يعني: توحيد الربوبية ـ لم يذهب إلىٰ نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، ولم يُعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: إن العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال.

قال: فإن الثنوية من المجوس، والمانوية القائلين بالأصلين: النور والظلمة، وأن العالم صدر عنهما(٦٢)، متفقون علىٰ أن النور خير من الظلمة، وهو الإله المحمود عندهم، وأن الظلمة شريرة مذمومة، وهم متنازعون في الظلمة: هل هي قديمة، أو محدثة؟ فلم يسووا بين ربين متماثلين، وهم كفار ضُلاَّل.

= توحيد الألوهية هو الذي ضل فيه المشركون الذين قاتلهم النبي ﷺ واستباح دمهم وأموالهم وأرضهم وديارهم وسبىٰ نساءهم وذريتهم، واكثر ما يعالج الرسل أقوامهم علىٰ هذا النوع من التوحيد. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [سورة النحل، الآية: ٣٦].

فالعبادة لا تصح إلا لله عز وجل، ومن أخل بهذا التوحيد فهو مشرك كافر وإن أقر بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، فلو فرض أن رجلًا يقرأ إقرارًا كاملًا بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات ولكنه يذهب إلىٰ القبر فيعبد صاحبه أو ينذر له قربانًا يتقرب به إليه فإنه مشرك كافر خالد في النار قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٧٢].

وإنما كان التوحيد أعظم ما أمر الله لأنه الأصل الذي ينبني عليه الدين كله، ولهذا بدأ به النبي ﷺ في الدعوة إلىٰ الله، وأمر من أرسله للدعوة أن يبدأ به.

(٦٢) الثنوية والمانوية اعتقدوا أن النور والظلام قديمان أزليان، يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر، والصلاح والفساد، ونسبوا الخير والنفع والصلاح للنور، والشر والضر والفساد للظلام، فجعلوا للعالم إلهين اثنين يقتسمان خلق المقادير وأفعال العباد.

فساد عقيدة النصارى والرد عليهم:

قال: وأما النصارىٰ القائلون بالتثليث؛ فإنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض، بل هم متفقون علىٰ أن صانع العالم واحد، ويقولون :باسم الأب والابن وروح القدس، إله واحد، وقولهم في التثليث قول متناقض في نفسه، وقولهم في الحلول أفسد منه، ولهذا كانوا يكتمون قولهم عن كثير من أصحابهم؛ فإنهم إذا فهموه؛ نفروا عنه بفطرة عقولهم، وهذا دأب كل مضل وملحد في كل شريعة وملة بكتم الإلحاد والضلال عن أكثر أتباعه؛ لأن المقالات الفاسدة في الهيئات قد فطر الله عباده علىٰ العلم بفسادها بعد التصور التام، ولهذا لا يكاد أحد من النصارىٰ يعبر عن قولهم بمعنىٰ معقول، ولا يكاد اثنان منهم يتفقان علىٰ قول واحد؛ فإنهم يقولون: هو واحد بالذات، ثلاثة بالأقنوم[٦٣]، والأقانيم: تُفسر تارة بالخواص، وتارة بالصفات، وتارة بالأشخاص، ويقولون: إن الأقانيم هي: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم روح القدس[٦٤]، وكلام النصارىٰ علىٰ غاية من الفهاهة والبلادة، وهم أمة ضالة تائهة، حتىٰ قال بعض الفضلاء: إنهم عار علىٰ بني آدم، وقال آخر: لو اجتمع عشرة من علماء النصارىٰ؛ لافترقوا عن أحد عشر مذهبًا، والحاصل أنهم لا يقولون: إن خالق الخلق ثلاثة، بل واحد بلا ذات، والله أعلم.

---

(٦٣) الأقنوم: يعني الأصل، وهو لفظ يوناني أو رومي.

(٦٤) وقول النصارىٰ في الأقانيم وعقيدة التثليث قول غريب إذ هو ناتج عن هوسات العقول، فهو محض اختراع وابتداع، وعقيدة التثليث لم تكن موجودة في بني آدم حتىٰ اخترعها النصارىٰ، وزعموا أنها سبيل النجاة، ولم ينقل عن عيسىٰ عليه السلام أنه دعا إلىٰ التثليث أو بيّنه أو غير ذلك، ولهذا فإن التثليث من أعجب الكفر الذي وقع فيه بنو آدم، والله المستعان.

عجز المتكلمين في باب توحيد الربوبية ولجوؤهم إلى دليل التمانع:

والمقصود هنا أنه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين، مع أن كثيرًا من أهل الكلام والنظر والفلسفة تعبوا في بيان هذا المطلوب وتقريره، ومنهم من اعترف بالعجز عن تقرير هذا بالعقل، وزعم أنه يتلقىٰ من السمع.

والمشهور عن النُّظار إثباته بدليل التمانع، وهو دليل صحيح في نفسه، وهو أنه لو كان للعالم صانعان متكافئان؛ فعند اختلافهما، مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم ويريد الآخر تسكينه، أو يريد إحياءه ويريد الآخر إماتته؛ فإما أن يحصل مرادهما أو مراد أحدهما أو لا يحصل مراد واحد منهما، والأول ممتنع؛ لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع لأنه يستلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون، ويستلزم أيضًا عجز كل منهما، والعاجز لا يكون إلهًا، ولأن المانع من فعل أحدهما هو فعل الآخر؛ فلو امتنع مرادهما؛ لزم كون كل منهما مانعًا للآخر وممنوعًا للآخر، وذلك يستلزم كون كل منهما قادرًا غير قادر؛ لأن كونه مانعًا يقتضي القدرة، وكونه ممنوعًا يقتضي العجز، وذلك تناقض، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر؛ كان هذا هو الإله القادر، والآخر عاجز لا يصلح للإلهية.

وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾؛ لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الإلهية الذي بينه القرآن ودعت إليه الرسل، وليس الأمر كذلك.

الثالث توحيد الإلهية، وهذا هو المقصود الأعظم، وهو قطب ذلك التوحيد، وهو الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، بل ما خلق الله سبحانه الخلق إلا

لهذا التوحيد الذي هو توحيد الإلهية، المتضمن توحيد الربوبية، وهو عبادة الله وحده لا شريك له؛ فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن الله خالق السماوات والأرض؛ كما أخبر عنهم تعالىٰ بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

غالب شرك الأمم من تعظيم القبور وتماثيل الصالحين:

وهذا في القرآن كثير جدًّا، مما يُحتج عليهم في إثبات توحيد الإلهية بما اعترفوا به من توحيد الربوبية؛ فإنهم لم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم، تارة يعتقدون أنها تماثيل قوم صالحين من الأنبياء ونحوهم، ويتخذونهم شفعاء يتوسلون بهم إلىٰ الله، وهذا كان أصل شرك العرب، كما ثبت في «**الصحيح**»[٦٥] عن النبي ﷺ: أن عمرو بن لُحي بن قَمْعة بن خِنْدَف[٦٦] هو أول مَن غَيَّر دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ونَصَبَ الأنصاب حول البيت، وسَيَّب السوائب، وأخبر النبي ﷺ أنه رآه يجر قُصْبه في النار ﴿أي: أمعاءَه﴾.

---

(٦٥) «صحيح البخارىٰ» (١٢١٢).

(٦٦) وقع عند البخاري «عمرو بن لُحيّ بن قمعة بن خندف أبُو خُزاعة» أي هُو أبُو خُزاعة، وعند الإسماعيليّ «خُزاعة بن قمعة بن عمرو بن خندف» وفيه تغيير بالتّقديم والتّأخير؛ وعنده أيضًا: «عمرو أبُو خُزاعة بن قمعة بن خندف» وهذا يُوافق الأوّل لكن بحذف لُحيّ، وبأن يُعرب ابن قمعة أعراب عمرو لا إعراب أبُو خُزاعة، وأصوبها الأوّل، وأخرجهُ مُسلم ولفظه «رأيت عمرو بن لُحيّ بن قمعة ابن خندف يجُرّ قُصبهُ في النّار» وأوردهُ ابن إسحاق في « السّيرة الكُبرىٰ» ولفظه «سمعت رسُول اللّه ﷺ يقُول لأكثم بن الجون : رأيت عمرو بن لُحيّ يجُرّ قُصبهُ في النّار، لأنّهُ أوّل من غيّر دين إسماعيل، فنصب الأوثان وسيّب السّائبة وبحّر البحيرة ووصل الوصيلة وحمىٰ الحامي».

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكانت خزاعة ولاة البيت الحرام قبل قريش، وكان عمرو هذا ـ فيما ذكره أهل السير ـ قد قدم أرض البلقاء من الشام، فوجدهم يعبدون الأصنام، ويقولون: إنهم يطلبون بهم الرزق والنصر! فجلب الأصنام إلىٰ مكة، فكان ذلك أول الشرك الذي غير به دين إبراهيم، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾.

التشابه بين شرك العرب وشرك قوم نوح:

وقد ثبت في «**صحيح البخاري**»[٦٧] وكُتب التفسير وقصص الأنبياء وغيرها عن ابن عباس وغيره من السلف؛ أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح؛ فلما ماتوا؛ عكفوا علىٰ قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم، وأن هذه الأصنام بعينها صارت إلىٰ قبائل العرب، ذكرها ابن عباس قبيلة قبيلة[٦٨].

فتبيَّن أن شرك العرب كان من جنس شرك قوم نوح، وأن الأصنام أصلها تماثيل قوم صالحين.

وشرك النصارىٰ قريب من هذا الجنس؛ فإنهم يصورون في كنائسهم صور من يحسنون به الظن، ويتخذونه شفيعًا ووسيلة إلىٰ الله تعالىٰ.

وقد ثبت في «صحيح مسلم»[٦٩] عن أبي الهياج الأسدي؛ قال: قال لي عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «**ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أمرني: أن لا أدع**

---

(٦٧) «صحيح البخارىٰ» (٤٩٢٠).

(٦٨) كنت قديمًا قد كتبتُ بحثًا مختصرًا في تحقيق هذا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذلك في تخريج «الجواب الباهر في زوار المقابر» لابن تيمية نشر دار ابن رجب بمصر فراجعه إن شئت.

(٦٩) «صحيح مسلم» (٧/ ٣٦،٣٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قبرًا مشرفًا إلا سوَّيتُه، ولا تمثالًا إلا طمستُه».

وفي «**الصحيحين**»(٧٠) أن رسول الله ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارىٰ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»؛ يحذر ما فعلوا. قالت عائشة رضي الله عنها: ولولا ذلك؛ أُبرز قبره، ولكن كَرِه أن يُتخذ مسجدًا.

ومن أسباب الشرك: عبادة الكواكب، واتخاذ ما يظن أنه مناسب للكواكب من طبائعها وغير ذلك، وشرك قوم إبراهيم عليه السلام ـ فيما يقال ـ كان من هذا الجنس.

وكذلك الشرك بالملائكة والجن واتخاذ الأصنام لهم.

المشركون يقرون بتوحيد الربوبية ويتخذون الأصنام للشفاعة:

وهؤلاء المشركون كانوا مُقِرِّين بالصانع سبحانه، وأنه ليس للعالم صانعان، ولكن اتخذوا هذه الوسائط شفعاءَ؛ كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

(٧٠) «صحيح البخارىٰ» (١٣٣٠) ومسلم (١٩/ ٥٢٩).

مطلب

المتصوفة جعلوا توحيد الربوبية غاية السالكين

فلو أقر الرجل بتوحيد الربوبية الذي يقر به هؤلاء النُّظَّار، ويفنىٰ فيه كثير من أهل التصوف، ويجعلونه غاية السالكين ـ كما ذكره صاحب «**منازل السائرين**»[(٧١)] وغيره، وهو مع ذلك لم يعبد الله وحده، ويتبرأ من عبادة ما سواه؛ كان مشركًا من جنس أمثاله من المشركين.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: «وكثير من الصوفية والفقراء إنما سعيهم في تحقيق هذا الافتقار وشهود الربوبية؛ يعني : الافتقار إلىٰ الله علمًا وذوقًا وشهود الربوبية».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن ضم إلىٰ ذلك توحيد الإلهية، وشهد الفرق الثاني كالجُنيد وأمثاله؛ فهؤلاء هُم العارفون أولياء الله المتقون، وإن وقفوا عند ذلك ولم يشهدوا توحيد الإلهية والأمر والنهي؛ فهم المضارعون للمشركين والمحتجين بالقدر؛ بحسب ما فيه من ذلك من الشر».

لا سبيل لمن أقر بتوحيد الربوبية إلا أن يُتبعه توحيد الإلوهية؛

والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له، ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية، ويبين أنه لا خالق غير الله، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله، فيجعل الأول دليلًا علىٰ الثاني؛ فيبين لهم سبحانه أنه : إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق

---

(٧١) هو أبو إسماعيل الهروي الحنبلي، وكتابه هذا شرحه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وسماه «مدارج السالكين».

إلا الله، وهو الذي يأتي العباد بما ينفعهم ويدفع عنهم ما يضرهم، لا شريك له في ذلك؛ فلماذا تعبدون غيره، وتجعلون معه آلهة أخرىٰ ؟!

كقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يقول تعالىٰ: أإله مع الله فعل هذا ؟! وهذا استفهام إنكاري يتضمن نفي ذلك، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله؛ فاحتج بذلك عليهم، وليس المعنىٰ أنه استفهام: هل مع الله إله ؟ كما ظنه بعضهم؛ لأنه لا يناسب سياق الكلام.

والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرىٰ؛ كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، لكنهم ما كانوا يقولون: إن معه إلهًا جعل الأرض قرارًا وجعل خلالها أنهارًا، بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا.

وهكذا سائر الآيات بعد هذه الآية.

والحاصل: أنه لابد من توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية، وقد نقلنا أنه ليس في أهل الأرض من أثبت للعالم خالقين متماثلين في الصفات والأفعال، بل هذا ممتنع لذاته، وامتناعه ظاهر في العقول؛ بخلاف ما يظنه كثير من أهل الكلام والفلسفة.

بعض الفرق الضالة تثبت للأشياء صانعًا غير الله:

نعم؛ بعض أهل الضلال يزعم أن ثَمَّ خالقًا لبعض العالم؛ كالثنوية في الظلمة، وكالقدرية في أفعال الحيوان، والفلاسفة الدهرية في حركة الأفلاك، أو حركات النفوس والأجسام الطبيعية؛ فإن من هؤلاء الفرق الضالة من يثبت أمورًا محدثة

بدون إحداث الله تعالىٰ إياها؛ فهم المشركون في بعض الربوبية، وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في إلهية شيء من هذا، وأنها تنفعه وتضره بدون أن يخلق الله ذلك، فلما كان هذا الشرك في الربوبية موجودًا في الناس؛ بيّن القرآن بطلانه بقوله تعالىٰ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

والموجود خلاف هذا؛ فإن العالم مرتبط بعضه ببعض، ما من مخلوق إلا وهو متصل بغيره من المخلوقات محتاج إليه؛ فالحيوان الواحد والنبات الواحد من أصل، وذلك الأصل من غيره، وهَلُمَّ جرًّا، وهو أيضًا مفتقر إلىٰ الهواء والماء والتراب، بل وإلىٰ أنواع النباتات والحيوانات، ومفتقر إلىٰ أثر الشمس والقمر والليل والنهار وغير ذلك، والفلك مرتبط بعضه ببعض، والأفلاك مفتقر بعضها إلىٰ بعض، والعالم العلوي مرتبط بالعالم السفلي؛ فلو قُدِّر أن صانع الأرض غير صانع السماء، وأنه مستغن عنه، لا يغيِّر أحدهما مصنوع الآخر؛ لزم ذلك أن لا يكون ما في السماء مؤثرًا في الأرض، فلا تؤثر الشمس والقمر في الأرض، وأن يكون ما يصعد من الأبخرة والأدخنة والأغبرة لا يؤثر في نور الشمس والقمر والهواء، والواقع خلافه، وتقرير هذا يطول.

والمقصود: أن الحديث النبوي - في هذا الدعاء المأثور عن ينبوع الحِكَم، ومعدن الفصاحة والبلاغة، ومن أوتي جوامع الكلم - اشتمل علىٰ التوحيد الذي هو المقصود من خلق العالم؛ توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية، والله سبحانه وتعالىٰ الموفق.

مطلب

التفصيل في قوله عليه الصلاة والسلام: «خلقتني»

❁ **وقوله** ﷺ : «**خلقتني**»: راجع إلىٰ توحيد الربوبية؛ لأن الله جل ثناؤه هو الخالق العالم وحده لا شريك له ولا وزير له، ﷻ .

أحوال ابن آدم من نشأته إلى بعثه:

ولقد امتن الله علىٰ عباده بخلقه لهم في عدة آيات؛ قال جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾.

فاستوعب الله ذِكْرَ أحوال ابن آدم قبل كونه نطفة، بل ترابًا وماءً، إلىٰ حين بَعْثِهِ يوم القيامة؛ فأول مراتب خَلْقِهِ أنه سلالة من طين، ثم سلالة من ماء مهين، وهي النطفة التي استُلَّت من جميع البدن، فتمكث كذلك أربعين يومًا، ثم يقلب الله سبحانه تلك النطفة علقة سوداء من دم، فتمكث أربعين يومًا أخرىٰ، ثم يصيرها الله تعالىٰ مضغة ـ وهي قطعة لحم ـ أربعين يومًا، وفي هذا الطور تُقَدَّر أعضاؤه وصورته وشكله.

واختُلِف في أول ما يتشكل ويُخْلق من أعضائه؛ فقيل: القلب، وقيل: الدماغ، وقيل: الكبد، وقيل: فِقار الظهر. ودليل كل قول وترجيحه علىٰ ما سواه مما يطول ذكره؛ فلا يناسب ما نحن بصدده.

وحاصل ما شاهده أرباب التشريح ـ حتىٰ أنهم متفقون عليه ـ أن أول ما يتبين في خلق جثة الحيوان ثلاث نقط متقاربة بعضها من بعض، يُتَوَهَّمُ أنها رسم الكبد والقلب والدماغ، ثم يزداد بعضها من بعض بعد امتداد أيام الحمل؛ فهذا القدر هو الذي عند المشرحين؛ فأما أي هذه النقط أسبق وأقدم؛ فليس عندهم عليه دليل.

أحوال النشأة:

قال الإمام المحقق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «**تحفة الودود في أحكام المولود**»: «ألا إن الأخلق والأولىٰ والأقيس تقدم القلب، والله أعلم».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في «**مفتاح دار السعادة**» بعد أن حكىٰ اختلاف المقالات وحججها في ذلك: «الصحيح أنه ـ يعني القلب ـ أول الأعضاء تكونًا».

وقد قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ الآية.

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

وقال جل ثناؤه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

وقال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾.

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

هذا في كتاب الله كثير يدعو العبد إلىٰ النظر والتفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره؛ إذ خلْقه من أعظم الدلائل علىٰ خالقه وفاطره، وفيه من العجائب الدالة علىٰ عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف علىٰ بعضه؛ فلهذا قال المصطفىٰ في هذا الدعاء العظيم: «**اللهم أنت ربي لا إله أنت، خلقتني...**» إلخ.

وهذا من أعظم أسباب الإجابة: أن يقول الإنسان في صدر دعائه أمام حاجته من الثناء، والتوحيد، والعظمة لربه، والاعتراف بالعجز والانكسار، وأن يرجع علىٰ نفسه بذنبه ما يليق ويحسن، ثم يذكر حاجته.

وعلىٰ كل حال؛ من أعظم ما منَّ الله به علىٰ عبده: أن أبرزه من العدم إلىٰ الوجود، وجعل له سمعًا وبصرًا وعقلًا وفهمًا، وركب فيه من القوىٰ الظاهرة والباطنة ما يبهر به عقول العقلاء، وإذا كان الحق جل ثناؤه أنشأنا من العدم إلىٰ الوجود؛ فلا يحسن منا عدم طاعته في كل لحظ ولفظ.

ولهذا يقول سبحانه: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾.

مطلب

مبدأ الخلق وعجائب التكوين

فانظر - رحمك الله - إلىٰ مبدأ خلقك، وإلىٰ ما أَوْدَعَ فيك من القوىٰ، وما رَكَّب فيك من العروق والمفاصل؛ تجد أمرًا يبهر الألباب، ويحير العقول؛ فانظر بعين البصيرة إلىٰ النطفة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مر بها ساعة

من النهار؛ فسدت وأنتنت؛ كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب؛ منقادة لقدرته، مطيعة لمشيئته، مذللة الانقياد علىٰ ضيق طريقها واختلاف مجاريها، إلىٰ أن ساقها إلىٰ مستقرها؟! وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثىٰ، وألقىٰ المحبة بينهما؟! وكيف قادهما سلسلة المحبة والاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه؟!

وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بُعْد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء، وجمعهما في موضع واحد، وجعل لهما قرارًا مكينًا لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تسلط عليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء علقة حمراء تضرب إلىٰ سواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعلها عظامًا مجردة لا كسوة عليها، مباينة للمضغة في شكلها، وهيئتها، وقَدْرها، وملمسها، ولونها؟!

النظر في جسم الإنسان وتقسيمه :

وانظر كيف قَسَّمَ تلك الأجزاء المتساوية المتشابهة إلىٰ الأعصاب والعظام بالعروق والأوتار، واليابس واللين، وبين ذلك؟!

ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوىٰ رباط وأشده وأبعده عن الانحلال؟! وكيف كساها لحمًا ركبه عليها، وجعله وعاءً لها، وغشاءً وحافظًا، وجعلها حاملة له، مقيمة له؛ فاللحم قائم بها، وهي محفوظة به؟!

وكيف صورها، فأحسن صورها، وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ، ومد اليدين والرجلين وبسطهما، وقسم رؤوسها بالأصابع، ثم قسم

الأصابع بالأنامل، وركَّب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد منها له قدر يخصه، ومنفعة تخصه؟!

ثم انظر الحكمة البالغة في تركيب العظام قوامًا للبدن، وعمادًا له، وكيف قدَّرها ربُّها وخالقها بمقادير مختلفة وأشكال متباينة؛ فمنها الصغير والكبير، والطويل والقصير، والمنحني والمستدير، والدقيق والعريض، والمصمت، والمجوف؟!

وكيف ركب بعضها في بعض؛ فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الأنثىٰ، ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط؟!

وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها؛ كالأضراس؛ فإنها لما كانت آلة للطحن؛ جُعلت عريضة، ولما كانت الأسنان آلة للقطع فقط؛ جُعلت مستدقة محددة؟!

ولما كان الإنسان محتاجًا إلىٰ الحركة بجملة بدنه وبعض أعضائه للتردُّد؛ لم يجعل عظامه عظمًا واحدًا، بل عظامًا متعددة، وجعل بينها مفاصل حتىٰ يستدير بها، وكان قدر كل واحد منها وشكله علىٰ حسب الحركة المطلوبة منه، وكيف شد أزر تلك المفاصل والأعضاء، وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات أثبتها من أحد طرفي العظم وألصق العظم بالطرف الآخر كالرباط له، ثم جعل في أحد طرفي العظم زوائد خارجة عنه، وفي الآخر نُقرًا غائصة فيه، موافقة لشكل تلك الزوائد؛ لتدخل فيها، وتنطبق عليها؛ فإذا أراد العبد أن يحرك جزءًا من بدنه؛ لم يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك.

خلق الرأس وتكوينه :

وتأمل كيف خلق الرأس وكثرة ما فيه من العظام، حتىٰ قيل: إنها خمسة وخمسون عظمًا مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع، وكيف ركَّبه سبحانه علىٰ البدن، وجعله عاليًا عليه علوَّ الراكب علىٰ مركوبه.

ولمَّا كان عاليًا علىٰ البدن؛ جعل فيه الحواس الخمس، وآلات الإدراك كلها؛ من السمع والبصر والشم والذوق واللمس.

وجعل حاسة البصر في مُقَدَّمِهِ؛ ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن، وركَّب كل عين بسبع طبقات، لكل طبقة وصف مخصوص ومنفعة مخصوصة، لو فُقِدت طبقة من تلك السبع الطباق أو زالت عن هيئاتها ومواضعها؛ لَتَعَطَّلَتِ العين عن الإبصار.

ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقًا عجيبًا، وهو إنسان العين بقدر العدسة، ينظر ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء، وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء؛ فهو ملكها، وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خَدَمٌ له وحُجَّاب وحُرَّاس؛ فتبارك الله أحسن الخالقين.

وشقَّ سبحانه له السمع، وخلق له الآذان أحسن خِلْقَةً وأبلغها في حصول المقصود منها؛ فجعلها مجوفة كالصدفة. لتجمع الصوت فتؤديه للصِّماخ، وليحس بدبيب الحيوان فيها، فيبادر إلىٰ إخراجه، وجعل فيها غصونًا وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل، فتكسره، ثم تؤديه إلىٰ الصماخ.

ثم اقتضت حكمة الحكيم الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مُرًّا في غاية

المزازة، فلا يجاوزه الحيوان إلىٰ باطن الأذن، بل إذا وصل إليه؛ أعمل الحيلة في رجوعه.

وجعل ماء العين مالحًا؛ ليحفظها؛ فإنها شحمة قابلة للفساد، فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظًا.

وجعل ماء الفم عذبًا حلوًا؛ ليدرك به طعم الأشياء علىٰ ما هي عليه؛ إذ لو كان علىٰ غير هذه الصفة؛ لأحالها إلىٰ طبيعته؛ كما أن من عرض لفمه المرارة؛ استَمَّر[٧٢] طعم الأشياء التي ليست مرة؛ كما قيل:

ومن يك ذا فمٍ مرٍّ مريض يجد مُرًّا به الماء الزلالا

خلق الأنف وتكوينه:

ونصب سبحانه قصبة الأنف في وسط الوجه؛ فأحسن شكله وهيأته، وفتح فيه المنخرين، وحجز بينهما بحاجز، وأودع فيها حاسة الشم التي يدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة، والنافعة والضارة، ويستنشق منه الهواء فيوصله إلىٰ القلب؛ فيتروح به، ويتغذىٰ به، ولم يجعل فيه اعوجاجًا وغضونًا كالأذن؛ لئلا يمسك الرائحة فيضعفها، وجعله سبحانه مَصَبًّا تنحدر إليه فضلات الدماغ، فتجتمع فيه ثم تخرج منه.

واقتضت حكمته تعالىٰ أن جعل أعلاه أدق من أسفله؛ لأن أسفله إذا كان واسعًا؛ اجتمعت فيه الفضلات، فتخرج بسهولة، ولأنه يأخذ من الهواء ملأه، ثم يتصاعد في مجراه قليلًا قليلًا حتىٰ يصل إلىٰ القلب وصولًا لا يفتره ولا يزعجه.

---

(٧٢) أي: استشعر فيها المراد.

ثم فصل بين المنخرين بحاجز حكمةً منه ورحمةً؛ فإنه لما كان قصبة ومجرىٰ سائرًا لما ينحدر منه من فضلات الرأس ومجرىٰ للنفس الصاعد منه؛ جعل وسطه حاجزًا؛ لئلا يفسد بما يجري فيه، فيمنع نشقه للنفس، بل إما أن تعتمد الفضلات نازلة من أحد المنفذين في الغالب، فيبقىٰ الآخر للنفس، وإما أن يجري فيهما، فينقسم، فلا يفسد الأنف جملة، بل يبقىٰ فيه مدخل للنفس.

وأيضًا؛ فإنه عضو واحد وحاسة واحدة، فجعل الحاجز بينهما لأنه ربما أُعيب إحداهما أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها، فتكون الأخرىٰ سالمة، فلا تتعطل منفعة هذا الحس جملة.

ولم يجعل في الوجه أنفين؛ لأنه شين ظاهر، فنصب فيه أنفًا واحدًا، وجعل فيه منفذين يحجز بينهما بحاجز يجري مجرىٰ تعدد العينين والأذنين في المنفعة، وهو واحد. فتبارك الله أحسن الخالقين.

خلق الفم وتكوينه :

وشق سبحانه للعبد الفم في أحسن موضع، وأليق به، وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات القطع والطحن ما تبهر العقولَ عجائبهُ.

فأودعه اللسان الذي هو أحد آياته الدالة عليه سبحانه، وجعله ترجمانًا لملك الأعضاء مبينًا عنه، كما جعل الأذن رسولًا مؤديًا ومبلغًا إليه؛ فهي رسوله وبريده.

واقتضت حكمته أن جعل هذا الترجمان مصونًا، محفوظًا، مستورًا، غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف؛ لأنها تؤدي من الخارج إليه؛ بخلاف اللسان؛ فإنه يؤدي منه إلىٰ الخارج، فَجُعِلَ مستورًا لعدم الفائدة في إبرازه؛ لأنه لا يأخذ من

الخارج إلىٰ القلب.

وأيضًا؛ فإنه لمَّا كان أشرف الأعضاء بعد القلب، ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره؛ ضُرب عليه سرادق يستره ويصونه؛ كالقلب في الصدر، ولأنه من ألطف الأعضاء وألينها، ولا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به، فلو كان بارزًا؛ صار عُرضةً للحرارة واليبوسة والنَّشاف المانع له من التصرف، إلىٰ غير ذلك من الحكم.

خلق الأسنان :

ثم زيَّن سبحانه الفم بما فيه من الأسنان التي هي جمال له وزينة، وبها قوام العبد وغذاؤه، وجعل بعضها رحىٰ للطحن، وبعضها آلة للقطع؛ فأحكم أصولها، وحدد رؤوسها، وبيَّض لونها، ورتَّب صفوفها؛ متساوية الرؤوس، متناسقة الترتيب، كأنها الدر النظيم[٧٣] بياضًا وصفاءً وحُسنًا.

خلق الشفتين :

وأحاط سبحانه علىٰ ذلك كله حائطين، أودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما، وهما الشفتان؛ فحسَّن لونهما وشكَّلهما، وجعلهما غطاءً للفم؛ إتمامًا لمخارج حروف الكلام، ونهاية له، لما جعل أقصىٰ الحلق بداية له، واللسان وما جاوره وسطًا، ولهذا كان أكثر العمل فيهما له؛ إذ هو الواسطة.

واقتضت حكمته سبحانه أن جعل الشفتين لحمًا صرفًا لا عظم فيه ولا عصب؛ ليتمكن بهما من مص الشراب، ويسهل فتحهما وطبقهما، وخص الفك الأسفل

---

(٧٣) يعني: المنظوم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بالتحريك؛ لأنه الأخف، وتحريك الأخف أحسن، ولأن الأعلىٰ يشتمل علىٰ الأعضاء السريعة؛ فلم يخاطر بها في الحركة.

خلق الحنجرة وقبول شهادة الأعمى :

وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة، والخشونة والملاسة، والصلابة واللين، والطول والعرض والقصر؛ فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف؛ فلا يكاد يشتبه صوتان إلا نادرًا.

ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمىٰ لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم، كما يميز البصير بينهم بصورهم، والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور.

خلق الرأس والوجه :

وزيَّن سبحانه الرأس بالشعر، وجعله لباسًا له؛ لاحتياجه إليه، وزيَّن الوجه بما أنبت فيه من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير؛ فزينه بالحاجبين، وجعلهما وقاية لما ينحدر من بشرة الرأس إلىٰ العينين، وقوَّسهما، وأحسن خطهما، وزيَّن أجفان العينين بالأهداب، وزين الوجه باللحية، وجعلها كمالًا ووقارًا ومهابة للرجل، وزيَّن الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب وتحتهما من العنفقة[٧٤].

خلق اليدين:

وكذلك خلقه سبحانه لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس ماله ومعاشه،

(٧٤) الشعر النابت تحت الشفا السفلىٰ.

فطولهما بحيث يصلان إلىٰ ما شاء من بدنه، وعرض الكف ليتمكن به من القبض والبسط، وقسم فيه الأصابع الخمس، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل، والإبهام باثنتين، وضع الأصابع الأربعة في جانب والإبهام في جانب؛ ليدور الإبهام علىٰ الجميع، فجاءت علىٰ أحسن وضع صلحت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال، ولو اجتمع الأولون والآخرون علىٰ أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعًا آخر للأصابع سوىٰ ما وَضِعت عليه؛ لم يجدوا إليه سبيلًا؛ فتبارك من لو شاء لسواها وجعلها طبقًا واحدًا كالصفحة، فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه، وأنواع تصرفاته، ودقيق الصنائع، والخط، وغير ذلك؛ فإن بسط أصابعه؛ كانت طبقًا يضع عليه ما يريده، وإن ضمها وقبضها؛ كانت دبوسًا وآلة للضرب، وإن جعلها بين الضم والبسط؛ كانت مغرفة ليتناول بها ويمسك فيها ما يتناوله.

خلق الأظفار:

وركب الأظفار علىٰ رؤوسها؛ زينة لها، واعتمادًا، ووقاية، ويلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا يتناولها جسم الأصابع، وجعلها سلاحًا لغيره من الحيوان والطير وآلة لمعاشه، وليُحك الإنسان بها بدنه عند الحاجة؛ فالظفر الذي هو أقل الأعضاء وأحقرها؛ لو عُدِمه الإنسان، ثم ظهرت به حكة؛ لاشتدت حاجته إليه، ولم يقم مقامه شيء في حك بدنه، ثم يهدي اليد إلىٰ مواضع الحك حتىٰ تمتد إليه ولو في النوم والغفلة، من غير حاجة إلىٰ طلب، ولو استعان بغيره؛ لم يعثر علىٰ موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة، ثم انظر إلىٰ الحكمة البالغة في جعل عظام أسفل البدن غليظة قوية؛ لأنها أساس له، وعظام أعاليه دونها في الثخانة والصلابة؛ لأنها محمولة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عظام البدن وحكمته سبحانه فيها :

ثم انظر كيف جعل الرقبة مركبًا للرأس، وركبها من سبع خرزات[٧٥] مجوفات مستديرات، ثم طبق بعضها علىٰ بعض، وركب كل خرزة علىٰ صاحبتها تركيبًا محكمًا متقنًا، حتىٰ صارت كأنها خرزة واحدة، ثم ركب الرقبة علىٰ الظهر والصدر، ثم ركب الظهر من أعلاه إلىٰ منتهىٰ عظم العَجُز من أربع وعشرين خرزة مركبة بعضها في بعض هي مجمع أضلاعه، والتي تمسكها أن تَنْحَلَّ وتنفصل، ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض؛ فوصل عظام الظهر بعظام الصدر، وعظام الكتفين بعظام العضدين، والعضدين بالذراعين، والذراعين بالكف والأصابع.

وانظر كيف كسا العظام العريضة كعظام الظهر والرأس كسوة من اللحم تناسبها، والعظام الدقيقة كسوة تناسبها؛ كالأصابع، والمتوسطة كذلك؛ كعظام الذراعين والعضدين؛ فهو مركب علىٰ ثلاث مئة وستين عظمًا، منها مئتان وثمانية وأربعون مفاصل، وباقيها صغار حشت خلال المفاصل؛ فلو زادت عظمًا واحدًا؛ لكانت مضرة علىٰ الإنسان، يحتاج إلىٰ قلعه، ولو نقصت عظمًا واحدًا؛ كان نقصانًا يحتاج إلىٰ جبره.

فالطبيب ينظر في هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج في جبرها، والعارف ينظر فيها ليستدل بها علىٰ عظمة بارئها وخالقها، وحكمته وعلمه ولطفه، وما أبعد ما بين النظرين!

ثم إنه سبحانه ربط تلك الأعضاء والأجزاء بالرباطات، فشد بها أسرها، وجعلها

---

(٧٥) أي: فقرات.

كالأوتاد تمسكها وتحفظها، حتىٰ بلغ عددها إلىٰ خمس مئة وتسعة وعشرين رباطًا، وهي مختلفة في الغلظ والرقة، والطول والقصر، والاستقامة والانحناء؛ بحسب اختلاف مواضعها ومجالها.

فجعل منها أربعًا وعشرين آلة لتحريك العين وفتحها وضمها وإبصارها، لو نقص منها رباطًا؛ اختل أمر العين.

وهكذا لكل عضو من الأعضاء رباطات هي له كالآلات التي بها يتحرك ويتصرف ويفعل.

كل ذلك صنع الرب الحكيم، وتقدير العزيز العليم، في قطرة ماء مهين؛ فويل للمكذبين، وبُعدًا للجاحدين.

باطن الجسم :

ثم إنه سبحانه ودع في الرأس ثلاث خزائن، نافذًا بعضها إلىٰ بعض، في مقدَّمه ووسطه وآخره، وأودعها من أسراره ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل، وأودع في باطن خلق الإنسان ما فيه من القلب والكبد والطحال والرئة والأمعاء والمثانة وسائر ما في بطنه من الآلات العجيبة والقوىٰ المتعددة المختلفة المنافع.

القلب وتكوينه وعجائبه :

فأما القلب؛ فهو الملك المشغل لجميع آلات البدن، المستخدم لها؛ فهو محفوف بها، محشود مخدوم، مستقر في الوسط، وهو أشرف أعضاء البدن، وبه قوام الحياة، وهو منبع الروح الروحاني والحرارة الغريزية، وهو معدن العقل، والحلم، والشجاعة، والكرم، والصبر، والاحتمال، والحب، والإرادة، والرضىٰ،

والغضب، وسائر صفات الكمال؛ فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هي جند من أجناد القلب:

فالعين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيات؛ فإن رأت شيئًا أدته إليه؛ ولشدة الارتباط بينها وبينه، إذا استقر فيه شيء ظهر منها؛ فهي مرآته المترجمة للناظر ما فيه؛ كما أن اللسان ترجمانه المؤدي للسامع ما فيه.

ولهذا كثيرًا ما يقرن سبحانه في كتابه بين هذه الثلاثة؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

وبالجملة؛ فجميع الأعضاء خدم القلب وجنوده.

ومن ثَمَّ قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب**»(٧٦).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «**القلب ملك، والأعضاء جنوده؛ فإن طاب الملك طابت جنوده، وإن خبث الملك خبثت جنوده**»(٧٧).

وجعلت الرئة كالمروحة، تروح عليه دائمًا؛ لأنه أشد الأعضاء حرارة، بل هو منبع الحرارة.

أفضل أحوال الذهن :

وأما الدماغ ـ وهو المخ ـ فإنه جعل باردًا، واختلف في حكمة ذلك:

---

(٧٦) «صحيح البخارى» (٥٢) ومسلم (١٩/ ٥٢٩).

(٧٧) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٩) موقوفًا بإسناد صحيح.

فقالت طائفة: لأجل تبريد الحرارة التي في القلب ليردها عن الإفراط إلىٰ الاعتدال.

وقالت طائفة: بل المخ حار، لكنه فاتر الحرارة، وفيه تبريد بالخاصية؛ فإنه مبدأ للذهن، ولهذا كان الذهن يحتاج إلىٰ موضع ساكن قار، صاف عن الأقذار والكدر، خال من الجَلَبَةِ والدَّخَلِ، ولذلك تكون جودة الفكر والتذكر واستخراج الصواب عند سكون البدن وفتور حركته وقلة شواغله ومزعجاته، وكذلك لم يصلح لها القلب، وكان الدماغ معتدلًا؛ لأن ذلك صالحًا له، ولذلك تجود هذه الأفعال في الليل وفي المواضع الخالية، وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة، وعند الهم الشديد، ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية.

مبدأ الحواس والعقل من القلب أو الدماغ:

وهذا البحث متصل بقاعدة أخرىٰ؛ وهي أن الحواس والعقل مبتدؤها القلب أو الدماغ؟؟ فعند طائفة أن مبدأها كلها القلب، وهي مرتبطة به، وبينه وبين الحواس منافذ وطرق. قالوا: وكل واحد من هذه الأعضاء. التي هي آلات الحواس. له اتصال بالقلب بأعصاب وغير ذلك، وهذه الأعصاب تخرج من القلب، إلىٰ أن تأتي إلىٰ كل واحد من هذه الأجسام التي فيها الحواس، منشأ هذه الأعضاء من القلب ـ وهو مركب من أشياء تشاكل جميع هذه الأقسام التي فيها الحواس؛ فالعين إذا أبصرت شيئًا؛ أدت بالآلة التي فيها إلىٰ القلب؛ لأن هذه الآلة متصلة منها إلىٰ القلب، وكذا السمع وغيره؛ فكل العروق التي في البدن متصلة بالقلب: إما بأنفسها، وإما بواسطة؛ فما من عرق ولا عضو إلا وله اتصال بالقلب اتصالًا قريبًا أو بعيدًا،

وينبعث منه في تلك العروق والمجاري إلىٰ كل عضو ما يناسبه ويشاكله، فينبعث منه إلىٰ العين ما يكون منه حسن البصر، وإلىٰ الأذنين ما يدرك به المسموعات، وإلىٰ اللحم ما يكون منه حسن اللمس، وإلىٰ الأنف ما يكون منه حسن الشم، وإلىٰ اللسان ما يكون منه حسن الذوق، وإلىٰ كل قوة ما تمد قوته وتخطفها؛ فهو الممد لهذه الأعضاء والحواس والقوىٰ، ولهذا كان الصحيح أنه أول الأعضاء تكونًا.

القلب أول الأعضاء تكونا والرد على المخالف :

ومن قال: إن العقل في الرأس – كالحنفية – فلعله بحسب الاتصال، قال الإمام المحقق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «**مفتاح دار السعادة**»: «الصواب أن مبدأ العقل ومنشأه من القلب، وفروعه وثمرته في الرأس، والقرآن قد دل علىٰ هذا بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾، ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات، بل المراد ما فيه من العقل واللب».

وزعم قوم أن مبدأ الحواس الدماغ، وأنكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصاب أو عروق، وقالوا: هذا كذب علىٰ الخلقة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : «والصواب التوسط بين الفريقين، وهو أن القلب ينبعث منه قوة إلىٰ هذه الحواس، وهي قوة معنوية، لا تحتاج في وصولها إليها إلىٰ مجاري مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها؛ فإن وصول القوىٰ إلىٰ هذه الحواس والأعضاء لا تتوقف إلا علىٰ قبولها واستعدادها وإمداد القلب، لا علىٰ مجاري وأعصاب، وبهذا يزول الالتباس في هذا المقام الذي طال فيه الكلام، وكثر فيه النزاع

والخصام، والله ولي الإنعام».

ولا يخفىٰ أن الذي ذكرناه من حكمة خلق الإنسان أقل القليل، والأمر أضعاف أضعاف كما يخطر بالبال، أو ليتوهمه الخيال، أو يجري به المقال، ولكنا قصدنا الإشارة إلىٰ قوله ﷺ في هذا الدعاء: «**اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني**» وإلا؛ فلو نظر الإنسان إلىٰ غذائه فقط، ومدخله ومستقره ومخرجه؛ رأىٰ منه العبر والعجائب:

فقد جعل الله له آلة يتناول بها، ثم بابًا يدخل منه، ثم آلة تقطعه صغارًا، ثم طاحونة تطحنه، ثم أُعِين بماء يعجنه، ثم جعل له مجرىٰ وطريقًا إلىٰ جانب مجرىٰ النفس، ينزل هذا ويصعد هذا، لا يلتقيان، مع غاية القرب، ثم جعل له حَوَايَا وطرقًا توصله إلىٰ المعدة؛ فهي خزانته، وموضع اجتماعه، ولها بابان: باب أعلىٰ يدخل منه الطعام، وهو أوسع، وباب أسفل يخرج منه تَفْلُهُ، وهو أضيق من الأعلىٰ؛ لأن الأعلىٰ مدخل للحاصل، والأسفل مصرف للضار منه، والأسفل منطبق دائمًا ليستقر الطعام في موضعه؛ فإذا انتهىٰ الهضم؛ فإن ذلك الباب ينفتح إلىٰ انقضاء الدافع، ويسمىٰ «البواب» لذلك، والأعلىٰ يسمىٰ «فم المعدة»، ينزل إلىٰ المعدة متلمسًا؛ فإذا استقر فيها انماع وذاب.

ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية، بل ربما تزيد علىٰ حرارة النار، ينضج بها الطعام فيها كما ينضج الطعام في القدر بالنار المحيطة به، ولذلك يذيب ما هو مستحجر؛كالحصا وغيره؛ حتىٰ تتركه مائعًا، فإذا أذابته علا صفوه إلىٰ فوق، ورسىٰ كدره إلىٰ أسفل. ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن، تنبعث فيها

معلوم كل عضو وقوامه، بحسب استعداده وقبوله، فينبعث أشرف ما في ذلك وألطفه وأحبه إلىٰ الأرواح؛ فينبعث إلىٰ البصر بصرًا، وإلىٰ السمع سمعًا، وإلىٰ الشم شمًّا، وإلىٰ كل حاسة بحسبها؛ فهذا ألطف ما يتولد عن الغذاء، ثم ينبعث منه إلىٰ الدماغ ما يناسبه من اللطافة والاعتدال، ثم ينبعث من الباقي إلىٰ الأعضاء في تلك المجاري بحسبها، وينبعث منه إلىٰ العظام والشعور والأظفار ما يغذيها ويحفظها، فيكون الغذاء داخلًا المعدة من طرق ومجارٍ، هذا وارد إليها، وهذا صادر عنها، حكمة بالغة ونعمة سابغة.

ولما كان الغذاء إذا استحال في المعدة استحال دَمًا، ومرة سوداء، ومرة صفراء، وبلغمًا؛ اقتضت حكمته سبحانه أن جعل لكل واحد من هذه الأخلاط مصرفًا ينصب إليه ويجتمع فيه، ولا ينبعث إلىٰ الأعضاء الشريفة إلا أكمله؛ فوضع البراز مصبًّا للمرة الصفراء، ووضع الطحال مصبًّا للمرة السوداء، وجعل الكبد يمتص أشرف ما في ذلك، وهو الدم؛ فهو بيته، ثم يبعثه إلىٰ جميع البدن من عرق واحد، ينقسم علىٰ مجاري كثيرة، يوصل إلىٰ كل واحد من الشعور والأعصاب والعظام والعروق ما يكون به قوامه، وأما البلغم؛ فبيته الصَّدر، وهو بارد رطب، لونه أبيض، وطعمه مالح، ثم إذا نظرت إلىٰ ما في الإنسان من القوىٰ الباطنة والظاهرة المختلفة في أنفسها ومنافعها؛ رأيت العجب العجاب؛ كقوة سمعه، وبصره، وشمه، وذوقه، ولمسه، وحبه وبغضه، ورضاه وغضبه... وغير ذلك من القوىٰ المتعلقة بالإدراك والإرادة، وكذلك القوىٰ المتصرفة في غذائه؛ كالقوة المنضجة له، والقوة الماسكة له، والرافعة له إلىٰ الأعضاء، والقوىٰ الهاضمة له بعد أخذ الأعضاء حاجتها منه.

فهذه آثار صنع الله تعالىٰ في قطرة من ماء مهين؛ فلو اجتمع الإنس والجن علىٰ

أن يخلقوا لتلك النطفة سمعًا، أو بصرًا، أو عقلًا أو قدرة، أو علمًا، أو روحًا، بل عظمًا واحدًا من أصغر عظامها، بل عرقًا واحدًا من أدق عروقها، بل شعرة واحدة؛ لعجزوا عن ذلك!! فمَن هذا صنعه في قطرة ماء؛ فكيف صُنْعُه في ملكوت السماوات والأرض؟! فسبحان من بهرت قدرته العقول، وتضاءلت لعظيم حكمته الفحول، ودلَّت مصنوعاته علىٰ حكمته وقدرته وإرادته، لا إله إلا هو، انفرد بخلق المخلوقات، وأحاط بكل شيء عِلْمًا.

مطلب

بيان قوله ﷺ: «وأنا عبدك»

❁ **قوله** ﷺ: «**وأنا عبدك**»[٧٨]؛ أي: تألُّهًا وخلقًا، وهذا معطوفٌ علىٰ قوله: «**اللهم أنت ربي**»؛ كأنه قال: اللهم أنت ربي وأنا عبدك.

❁ **قوله** ﷺ: «**لا إله إلا أنت، خلقتني**»: إذعان واعتراف بتوحيد الإلهية وتوحيد الربوبية، وإقرار بكل واحد منهما؛ كما أشرنا إليه سابقًا؛ أي: لا خالق لي ومربٍّ ولا إله ولا معبود سواك يا الله .

تعريف العبادة ومستلزماتها:

فالعبادة لله: اسم جامع لما أمر الله به ورسوله، وأول ذلك إقرار العبد بأن الله ربه

---

(٧٨) «اللهم أنت ربي... وأنا عبدك» فتقرّ لله ﷻ بلسانك وبقلبك أن الله هو ربك المالك لك، المدبر لأمرك، المعتني بحالك، وأنت عبده كونًا وشرعًا: عبده كونًا يفعل بك ما يشاء، إن شاء أمرضك، وإن شاء أصحك، وإن شاء أغناك، وإن شاء أفقرك، وإن شاء أضلك، وإن شاء هداك، حسبما تقتضيه حكمته ﷻ، وكذلك أنت عبده شرعًا تتعبد له بما أمَرَ به، تقوم بأوامره وتنتهي عن نواهيه، تقر بذلك.

وخالقه، وأنه مفتقر إليه في كل نفَس، وأن وجوده ووجود قدرته وأفعاله به منه، وأن وجود كل ما يوجد وكل ما وجد فمنه سبحانه، فإنه خالق ذلك، وخالق كل شيء وربه ومليكه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. فلا يكون العبد عابدًا لله ولا مؤمنًا به حتىٰ يقر بهذا كله، ثم لابد أن يكون عمله لله، فبذلك يكون عابدًا، وإلا؛ فلو أقر بربوبيته وعبد غيره؛ كان من جنس المشركين الذين يقرون بأن الله خالقهم ويعبدون غيره؛ كما أشار إلىٰ ذلك شيخ الإسلام في بعض كتبه.

مطلب

درجة العبودية وشرفها وعلو مكانة أهلها

ودرجة العبودية أفضل الدرجات وأرقىٰ المنزلات، ولهذا فَضَّلَ الله تعالىٰ بني آدم بها، ودعاهم إليها.

والمراد: العبودية الاختيارية، التي يأتون بها طوعًا واختيارًا، لا إكراهًا واضطرارًا.

وقد ثبت أنه سبحانه أرسل إسرافيل إلىٰ النبي ﷺ يخيره بين أن يكون ملكًا نبيًّا أو عبدًا نبيًّا، فنظر إلىٰ جبريل كالمستشير؛ فأشار إليه أن تواضع، فقال: «**بل أكون عبدًا نبيًّا**». رواه الإمام أحمد وأبو يعلىٰ وابن عساكر عن أبي هريرة، وابن عساكر من حديث عائشة، وأبو نعيم عن ابن عمر، وغيرهم رضي الله عنهم [(٧٩)].

---

(٧٩) حديث صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢٣١) وأبو يعلىٰ (٦١٠٥) وابن حبان (٢١٣٧/ موارد) عن أبي هريرة، وإسناده صحيح. ورواه أبو يعلىٰ (٤٩٢٠) عن عائشة رضي الله عنها وإسناده ضعيف. ورواه البيهقي في «الزهد» عن ابن عباس، وهو في «السلسلة الضعيفة» (٢٠٤٤) و«ضعيف الترغيب والترهيب» (١٩٠٨).

وقد ذكر حبيبه ونبيه ﷺ باسم عبوديته في أشرف مقاماته؛ في مقام الإسراء، ومقام الدعوة، ومقام التحدي:

فقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ ولم يقل برسوله ولا نبيه، أشار إلىٰ أنه نال هذا المقام الأعظم بكمال عبوديته لربه. وقال في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾. وقال في مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾.

وفي «**الصحيحين**»(٨٠) في حديث الشفاعة وتراجع الأنبياء فيها وقول المسيح عليه السلام: «**اذهبوا إلىٰ محمد؛ عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»؛ فدل ذلك علىٰ أنه نال ذلك المقام العظيم بكمال عبوديته لله وكمال مغفرة الله له.

ولما كانت العبودية عند الله بهذه المنزلة الرفيعة والدرجة الشامخة المنيعة؛ اقتضت حكمة العليم الحكيم أن أسكن آدم وذريته دارًا ينالون فيها هذه الدرجة؛ بكمال طاعتهم وتقربهم إليه بمحابه، وترك مألوفاتهم من أجله؛ فكان ذلك من تمام نعمته عليهم وإحسانه إليهم.

والعبد لغة: المملوك من نوع من يعقل. وقال في «**المحكم**»: «العبد: الإنسان؛ حرًّا كان أو رقيقًا؛ لأنه مملوك لبارئه». وقال سيبويه: «إنه في الأصل صفة، ولكنه استعمل استعمال الأسماء، وأجمع المسلمون علىٰ أن المراد بالعبد في الآيات المذكورة: محمد ﷺ» وقال الأستاذ أبو علي الدقاق: «ليس للمؤمنين صفة أتم ولا أشرف من العبودية، ولهذا أطلقها الله تعالىٰ علىٰ نبيه في أشرف المواطن؛ كقوله

(٨٠) رواه البخاري (٧٥١٠) ومسلم (٣٢٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾.

ويقال[٨١]: إنه لما وصل ﷺ إلىٰ الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المعراج؛ أوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا محمد! بم أشرفك؟ قال: يا رب بأن تنسبني إلىٰ نفسك بالعبودية. فأنزل الله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾.

ولهذا قال القاضي عياض[٨٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومما زادني عجبًا وتيهًا ... وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي ... وأن صيرت أحمد لي نبيا

ومن هذا قول بعضهم:

لا تدعُني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «من أراد السعادة الأبدية؛ فليلزم عتبة العبودية».

مرتبة العبودية العظمى:

وقال بعض العارفين: لا طريق أقرب إلىٰ الله من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوىٰ، ولا ينفع مع الإعجاب والكبر عمل واجتهاد، ولا يضر مع الذل والافتقار بطالة - يعني: بعد فعل الفرائض - والقصد أن الفقر والذل والانكسار

---

(٨١) قائل ذلك هو أبو القاسم سليمان الأنصاري، كما في «تفسير ابن حيان» و«تفسير الرازي»، وهو مجرد قول بلا مستند، فلا يصح التعويل عليه.

(٨٢) نسبة هذين البيتين للقاضي عياض: غريبة، والمشهور أنهما من كلام حسان بن ثابت.

تُدْخِلُ علىٰ الحليم الغفار، وترميه علىٰ طريق المحبة والوله[٨٣]؛ لأنه نفض يديه مما سواه مما عليه وله؛ فينفتح له من هذا باب لا يفتح له من غير هذا الطريق، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد بابًا من المحبة علىٰ التحقيق، لكن الذي يفتح منها من هذا الطريق قريب بلا تعويق؛ فالذل والانكسار، والعجز والافتقار، وازدراء النفس ورؤيتها بعين العيب والذم والنقص والضعف واللؤم؛ بحيث يشاهدها متصفة بكل عيب وذنب، وكل تفريط وخطب، نوع آخر وفتح آخر.

والسالك بهذا الطريق غريب في الناس، هم في وادٍ وهو في واد، وتسمىٰ طريقة الطير، يسبق النائم فيها علىٰ فراشه السعادة، فيصبح وقد قطع الركب بينما هو يحدثك، وإذا هو قد سبق الطرف وفات السعادة، وذلك لأنه رأىٰ نفسه أعجز شيء؛ لأنه لا قوة له ولا حول إلا بربه، قد سلَّم الأمر لذي النهي والأمر، فيشهد قلبه كريشة ملقاة بأرض فلاة، تسيرها الرياح يمينًا وشمالًا، وتعصف بها الأقدار إدبارًا وإقبالًا، ويشهد نفسه كراكب سفينة في البحر يهيج بها الريح، وتتلاعب الأمواج بتلك الألواح؛ فترفعها تارة، وتخفضها أخرىٰ، فتجري عليه أحكام القدر، وهو كالآلة طريحًا بين يدي مَن هو أولىٰ به وأحرىٰ، قد ألقىٰ نفسه ببابِهِ، ووضع خده علىٰ ثرىٰ أعتابه، لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا وصلًا ولا قطعًا؛ فما له من نفسه سوىٰ الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما؛ فالهلاك أولىٰ إليه من شراك نعله؛ كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع، لا يردها عنها إلا الراعي؛ فلو

(٨٣) الوَلَهُ: التحير، واستخدامها ههنا لا يجري علىٰ طريقة السلف، لأن طريق العبادة والحب والذل لله لا يحير العبد، بل يهديه إلىٰ صراط مستقم.

تخلىٰ عنها طرفة عين؛ لتقاسمتها أعضاءً؛ فهكذا حال العبد ملقىٰ بين يدي الله، وبين أعدائه من شياطين الإنس والجن؛ فإن حماه منهم، وكفهم عنه؛ نجا ولم يجدوا إليه سبيلًا، وإلا؛ بأن تخلىٰ عنه، ووكله إلىٰ نفسه طرفة عين؛ صار أكله لمن ظفر به منهم وسبق غيره إليه، حينئذٍ يعرف نفسه حقًّا، ويعرف ربه، وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور: «**من عرف نفسه عرف ربه**»، وليس هو حديثًا عن رسول الله ﷺ؛ كما قد توهمه جماعة، وسَأَلْنَا عنه بعض طلبة العلم، وإنما هو أثر إسرائيلي بغير هذا اللفظ، ولفظه: «**يا إنسان؛ اعرف نفسك تعرف ربك**».

كما قاله الإمام المحقق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «**شرح منازل السائرين**»؛ قال :

وفيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: أن من عرف نفسه بالضعف؛ عرف ربه بالقوة، ومن عرفها بالعجز؛ عرف ربه بالقدرة، ومن عرفها بالذل؛ عرف ربه بالعز، ومن عرفها بالجهل؛ عرف ربه بالعلم، فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق والحمد، والثناء والمجد، والغنىٰ، والعبد الفقير ناقص محتاج، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه وجهله؛ ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله.

الثاني: أن من نظر إلىٰ نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة؛ من القوة، والإرادة، والكلام، والمشيئة، والحياة؛ عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولىٰ به؛ فمعطي الكمال أحق بالكمال؛ فكيف يكون العبد حيًّا، متكلمًا، سميعًا، بصيرًا، مريدًا، عالمًا، يفعل باختياره، ومن خلقه وأوجده لا يكون أحق بذلك منه ؟! فهذا من أعظم المحال، بل من جعل العبد متكلمًا أولىٰ أن يكون هو متكلمًا، ومن جعله حيًّا قادرًا

سميعًا بصيرًا أولىٰ بذلك؛ فالتأويل الأول من باب الضد، وهذا من باب الأولوية.

الثالث: أن هذا من باب النفي؛ أي: كما إنك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك؛ فلا تعرف حقيقتها ولا ماهيتها ولا كيفيتها؛ فكيف تعرف حقيقة ربك وكيفية صفاته ؟!

والمقصود أن العبد يعرف بقلبه معرفة حقيقية أنه عاجز ضعيف، فتزول عنه رعونات الدعاوىٰ والإضافات إلىٰ نفسه، ويعلم أنه ليس له من الأمر شيء، بل هو ضعيف عاجز، وفقير منكسر القلب. وأحب القلوب إلىٰ الله تعالىٰ قلب تمكنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذلة؛ فهو ناكس الرأس بين يدي ربه، لا يرفع رأسه إليه حياء منه وخجلًا.

قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم؛ يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلىٰ يوم القيامة.

فهذا سجود القلب؛ فقلبٌ لا تباشره هذه الكسرة؛ فهو غير ساجد السجود المراد منه.

وإذا سجد القلب لله هذه السجدة العظمىٰ؛ سجدت معه جميع الجوارح، وَعَنَا الوجه حينئذ للحي القيوم، وخشعت الأصوات والجوارح كلها، وذل العبد، وخضع واستكان، ووضع خده علىٰ عتبة العبودية ناظرًا بقلبه إلىٰ ربه ووليه نظر الذليل إلىٰ العزيز الرحيم؛ فلا يُرىٰ إلا متملقًا لربه خاضعًا له ذليلًا مستكينًا متعطفًا له، يسأله عطفه ورحمته؛ فهو ملاذه وبه معاذه...

يـــا مـــن ألـــوذ بـــه فيمـــا أؤملـــه ومـــن أعـــوذ بـــه فيمـــا أحـــاذره

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا يجبر الناسُ عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابره[٨٤]

فإذا تمكنت المسكنة والذلة والانكسار من القلب، وعرف نفسه بالعجز والتقصير، وأنها متصفة بكل عيب ووصف حقير، وأنه لا حول له ولا قوة، ولا دفع ولا منع، ولا ضرر ولا نفع؛ إلا بالله، وأنه لولا عنايته؛ لمزقته الرياح، واحتوشته الشياطين، وتناهبته السباع، وأغرقته البحار؛ أدىٰ حينئذ العبودية حقًّا، فتصير خطرة المحبة مكان خطرات المصيبة، وإرادة التقرب إليه ومرضاته مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات مكان حركاتها بالمعاصي؛ قد امتلأ قلبه من محبته، ولهج لسانه بذكره، وانقادت الجوارح لطاعته؛ فإن هذه الكسرة الخالصة لها تأثير عجيب.

حكي في «**شرح منازل السائرين**» عن بعض العارفين؛ قال: دخلت علىٰ الله من أبواب الطاعات كلها؛ فما دخلتُ من باب؛ إلا رأيتُ عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول، حتىٰ جئتُ بباب الذل والافتقار؛ فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه، ولا مزاحم فيه ولا معوق؛ فما هو إلا أن وضعتُ قدمي في عتبته؛ فإذا قد أخذ بيدي وأدخلني عليه.

سعة رحمة الله وعفوه:

وفي «**مسند الإمام أحمد**»[٨٥] رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**ما من يوم إلا والبحر**

---

(٨٤) قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١١/ ٢٧٥): وأخبرني العلامة شمس الدين ابن القيم رحمه الله أنه سمع شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود أدعو الله بما تضمَّناه من الذل والخضوع.

(٨٥) حديث ضعيف: رواه أحمد في «المسند» (١/ ١٤٣) وفي إسناده العوام بن حوشب وهو ضعيف، =

يستأذن ربه أن يغرق بني آدم، والملائكة تستأذن أن تعاجله وتهلكه، والرب تعالىٰ يقول: دعوا عبدي؛ فأنا أعلم به إذ أنشأته من الأرض، وإن كان عبدكم، فشأنكم به، وإن كان عبدي؛ فمني إلىٰ عبدي، وعزتي وجلالي؛ إن أتاني ليلًا؛ قبلتُه، وإن أتاني نهارًا؛ قبلتُه، وإن تقرب مني شبرًا؛ تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب مني ذراعًا؛ تقربت إليه باعًا، وإن مشىٰ إليَّ؛ هرولتُ إليه، وإن استغفرني؛ غفرتُ له، وإن استقالني؛ أقلتُه، وإن تاب إليَّ؛ تبتُ عليه، مَن أعظم مني جودًا وكرمًا؛ وأنا الجواد الكريم؟ عبيدي يبيتون يبارزوني بالعظائم، وأنا أكلؤهم في مضاجعهم، وأحرسهم علىٰ فرشهم، من أقبل إليَّ؛ تلقيتُه من بعيد، ومن ترك لأجلي؛ أعطيتُه فوق المزيد، ومن تصرف بحولي وقوتي، ألنتُ له الحديد، ومن أراد مرادي؛ أردتُ ما يريد، أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي: إن تابوا؛ فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا؛ فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب».

مطلب

كيف ينال العبد درجة العبودية ؟

تنبيه: قد كثرت أقوال علماء الصوفية وأرباب المعارف والأحوال[٨٦] في العبارة

= وشيخه فيه مجهول، ولبعض فقرات هذا الحديث شواهد صحيحة.

(٨٦) لعل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ كان له ميل إلىٰ الصوفية لا سيما من وصفهم بالعلماء فإنهم سادات الصوفية وأبعد الناس عن خرافاتهم وضلالهم، ولهذا فهو ينقل عنهم ههنا، ولا حرج عليه في ذلك ولا بأس ما دام ينقل عنهم كلامًا سديدًا مستقيمًا لا يتعارض مع شيء من الوحيين، ونصيحتي للمسلمين: الإعراض عن الصوفية والمتصوفة، فعموم المسلمين لا ينبغي لهم القراءة في كتبهم، ولا أن يتبعوا شيئًا من طرقهم، وعليهم أن يكونوا تبعًا لأهل العلم.

في العبد والعبودية، وكل واحد تكلم بلسان قاله علىٰ قدر مقامه وحاله.

قال ابن عطاء الله: «العبد الذي لا ملك له».

وقال رويم: «يتحقق العبد بالعبودية إذا أسلم القيادة من نفسه إلىٰ ربه، وتبرأ من حوله وقوته، وعلم أن الكل له وبه».

وقال عبد الله بن محمد: «حزتَ درجة العبودية: إن كنت لا ترىٰ لنفسك ملكًا، وتعلم أنك لا تملك لها نفعًا ولا ضرًّا».

وما أحسن ما قيل في هذا القبيل[٨٧]:

وكنت قديما أطلب الوصل مِنْهُمُ ... فلما أتاني العلم وارتفع الجهل

تيقنت أن العبد لا طلب له ... فإن قُرِّبوا فضل وإن بُعِّدوا عدل

وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم ... وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو

وفي «**تاريخ ابن خِلِّكان**» في ترجمة أبي الفتوح أحمد بن محمد الطوسي الغزالي أخي الإمام أبي حامد الغزَّالي صاحب كتاب «**الإحياء**» عن ابن النجار؛ قال: قرأ القارئ بحضرة أحمد الغزالي: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الآية، فقال: شرفهم بياء الإضافة إلىٰ نفسه بقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾، ثم أنشد:

---

(٨٧) قائل هذه الأبيات هو تاج الدين بن عطاء الله السكندري الصوفي صاحب أبي العباس المرسي، وهما من كبار المتصوفة. ترجم له اليافعي في كتابه «مرآة الجنان وعبرة اليقظان» وأحسن الثناء عليهما، واعترض علىٰ الذهبي وغيره ممن انتقدوهما لبدعهما ومخالفة السلف، ولم يكتفِ اليافعي بذلك حتىٰ وسم من تنقصهما بأنهم من الحشوية يعني المجسمة المبتدعة في باب أسماء الله وصفاته.

وهـان علـي اللـوم فـي جنـب حبهـا ... وقـــول الأعـــادي إنـــه لخليـــع
أصـــم إذا نُوديـــتُ باســـمي وإننـــي ... إذا قيـــل لـــي يـــا عبـــدها لســـميع

وفي كتاب الإمام الحافظ ابن رجب في «**الذل والانكسار للعزيز الجبار**»: قال بعض العارفين[٨٨] : من ادعىٰ العبودية، وله مراد باق؛ فهو كاذب في دعواه، إنما تصح العبودية لمن أفنىٰ مراداته، وقام بمراد سيده، يكون اسمه ما يسمىٰ به، ونعته ما حلي به، إذا دعي باسمه؛ أجاب عن العبودية؛ فلا اسم له ولا رسم ولا يجيب إلا لمن يدعوه لعبودية سيده. ثم أنشأ يقول:

يـــا عمـــرو ثـــأري عنـــد زهـــراء ... يعرفـــــه الســـــامع والرائـــــي
لا تـــــدعني إلا بيـــــا عبـــــدها ... فإنـــــه أصـــــدق أســـــمائي

وقال غيره:

مـــالي وللفقـــراء إنـــي عـــاجز ... مثلـــــي لا يملـــــك إغنـــــائي
وإنمـــا يحســـن فقـــري إلـــى ... مالـــك إســـعادي وإشـــقائي
أتيـــه عجبًـــا بانتمـــائي إلـــى ... أبوابـــه إذا قلـــت مـــولائي
لا تـــــدعني إلا بيـــــا عبـــــدها ... فإنـــــه أشـــــرف أســـــمائي

وقال الإمام المحقق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «**روضة المحبين**»: «لا يصلح التعبد لأحد غير الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يغفر سبحانه لمن أشرك به في عبادته، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ فمحبة العبودية أشرف أنواع المحبة، وهي خالص حق الله علىٰ

---

(٨٨) قائل ذلك هو أبو عبد الله المغربي محمد بن إسماعيل الزاهد الصوفي كما ذكر صلاح الدين الصفدي في «الوافي بالوفيات».

عباده».

ثم ذكر حديث معاذ في «**الصحيح**»: «**أتدري ما حق الله علىٰ عباده؟**» قال معاذ: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أتدري ما حق العباد علىٰ الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم بالنار**»(٨٩).

ثم قال: أشرف صفات العبد وأحب أسمائه إلىٰ الله اسم العبودية؛ كما ثبت عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**أحب الأسماء إلىٰ الله: عبد الله وعبد الرحمن**»(٩٠).

مدار العبودية على قاعدتين:

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «**الكلم الطيب والعمل الصالح**»: «مدار العبودية علىٰ قاعدتين هما أصلهما: حب كامل وذل تام، ومنشأ هذين الأصلين مشاهدة المنة التي تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس والعمل الذي يورث الذل التام. والله أعلم».

مطلب

تنبيه: للعبد أحد عشر وجهًا جمعها ابن مالك في قوله:

عباد عبيد جمع عبد وأعبد ... أعابد معبودًا معبد عبد

كذلك عبدان وعبدان أثبتا ... كذاك العبد أو امدد إن شئت أن تمدا

---

(٨٩) رواه البخاري (٦٥٠٠) ومسلم (٤٨/ ٣٠).

(٩٠) رواه مسلم (٢١٣٢).

مطلب

معنى «وأنا على عهدك»

❁ **قوله: «وأنا علىٰ عهدك»**[(٩١)]؛ أي: ما عاهدتك عليه من الإيمان بك والإقرار بوحدانيتك، لا أزول عنه، وأنا علىٰ وعدك الذي وعدتك عليه من الاعتراف بعبوديتي لك ولربوبيتك.

❁ **ثم استثنىٰ بقوله: «ما استطعت»**؛ أي: مدة دوام استطاعتي موضع القدر السابق في أمره؛ أي: إن كان قد جرىٰ القضاء أن أنقض العهد يومًا ما؛ فإني أخلد عند ذلك إلىٰ التنصل والاعتذار؛ لعدم الاستطاعة في دفع ما قضيته عليَّ، قاله في «**النهاية**» وقيل: معناه أني متمسك بما عهدته إليَّ من أمرك ونهيك، ومبلي العذر في الوفاء به قدر الوسع والطاقة، وإن كنت لا أقدر أبلغ كنه الواجب فيه.

مطلب

الفرق بين العهود والعقود

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «**الهدي**»، وكذا ابن مفلح رَحِمَهُ اللَّهُ في «**الفروع**»: العقود والعهود متقاربة المعنىٰ أو متفقه؛ فإذا قيل: أعاهد الله أنني أحج العام؛ فهو نذر وعهد ويمين، ولو قال: إني لا أكلم زيدًا؛ فيمين وعهد لا نذر؛ فالأيمان إن تضمنت

---

(٩١) قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

«خلقتني وأنا عبدك وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت»، تقر بأن الله خلقك، هو الذي أوجدك من العدم، وأنك علىٰ عهده ووعده ما استطعت «علىٰ عهده» لأن كل إنسان قد عاهد الله أن يعمل بما علم ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[آل عمران: ١٨٧] فمتىٰ أعطاك الله علما فإنه قد عهد إليك أن تعمل به، «وعلىٰ وعدك» أي تطبيق وعدك، ما وعدت أهل الخير من الخير وما وعدت أهل الشر من الشر، ولكن أنا علىٰ وعدك أي في الخير، لأنك في هذه الكلمات تتوسل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

معنىٰ النذر، وهو أن يلتزم لله قربة؛ لزمه الوفاء، وهي عقد وعهد ومعاهدة لله؛ لأنه التزم لله ما يطلبه الله منه، وإن تضمنت معنىٰ العقود التي بين الناس، وهو أن يلتزم كل من المتعاقدين للآخر ما اتفقا عليه؛ فمعاقدة ومعاهدة يلزم الوفاء بها، ثم إن كان العقد لازمًا؛ لم يجز نقضه، وإلا خُير، ولا كفارة في ذلك لعظمه.

ونقل عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ : قال الله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ قال: العهود.

ونقل أبو طالب رَحِمَهُ اللَّهُ: العهد شديد في عشرة مواضع من كتاب الله، ويتقرب إلىٰ الله إذا حلف بالعهد بكل ما استطاع، ويكفر إذا أحنث بأكثر من كفارة يمين[٩٢].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في «**المغني**»: إن أجرىٰ اليمين علىٰ مباحٍ مباحٌ، وإن قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾؛ أي: في العهود والمواثيق؛ لقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ الآية، ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ قال: والعهد يجب الوفاء به بغير خلاف؛ فمع اليمين أولىٰ، ونهىٰ

---

(٩٢) روىٰ البخاري (٦٠٧٥) عن الزهرىٰ قال: حدثنىٰ عوف بن مالك بن الطفيل - هو ابن الحارث وهو ابن أخي عائشة زوج النبىٰ ﷺ لأمها - أن عائشة رضي الله عنها حدثت أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال في بيعٍ أو عطاءٍ أعطته عائشة: والله لتنتهين عائشة، أو لأحجرن عليها. فقالت: أهو قال هذا؟! قالوا: نعم. قالت: هو لله علىٰ نذرٌ أن لا أكلم ابن الزبير أبدًا. فاستشفع ابن الزبير إليها، حين طالت الهجرة فقالت: لا والله لا أشفع فيه أبدًا، ولا أتحنث إلىٰ نذرىٰ. فلما طال ذلك علىٰ ابن الزبير كلم المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث - وهما من بني زهرة - وقال لهما: أنشدكما بالله لما أدخلتماني علىٰ عائشة، فإنها لا يحل لها أن تنذر قطيعتي. فأقبل به المسور وعبد الرحمن مشتملين بأرديتهما حتىٰ استأذنا علىٰ عائشة فقالا: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أندخل؟ قالت عائشة: ادخلوا. قالوا: كلنا. قالت: نعم ادخلوا كلكم. ولا تعلم أن معهما ابن الزبير، فلما دخلوا دخل ابن الزبير الحجاب، فاعتنق عائشة وطفق يناشدها ويبكي، وطفق المسور وعبد الرحمن يناشدانها إلا ما كلمته وقبلت منه، ويقولان: إن النبىٰ ﷺ نهىٰ عما قد علمت من الهجرة، فإنه لا يحل لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ، فلما أكثروا علىٰ عائشة من التذكرة والتحريج طفقت تذكرهما نذرها وتبكي وتقول: إني نذرت، والنذر شديدٌ. فلم يزالا بها حتىٰ كلمت ابن الزبير، وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبةً. وكانت تذكر نذرها بعد ذلك فتبكىٰ، حتىٰ تبل دموعها خمارها.

عن نقض اليمين، ويقتضي التحريم.

وقال شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ: من جنس العهد والعقد لفظ الذمة، وقولهم: «هذا في ذمة فلان»: أصله من هذا؛ فيما لزمه بعهده وعقده. قال رَحِمَهُ اللَّهُ في «**الفنون**»: «الذمم هي العهود والأمانات».

الذمة لغةً وشرعًا :

وفي «**الواضح**»: ومنه أهل الذمة وذمة فلان، قال بعض أصحابنا في طريقته: الذمة لا تُمْلَكُ؛ لأنها العهد والميثاق لغة، وفي الشرع: وصف يصير به المكلف أهلًا للالتزام والإلزام، ولهذا؛ لو اشترىٰ من آخر في ذمته؛ صح، وإنما يَمْلِكُ الحق الثابت فيها، وقيل له: الذمة صفة، فتفوت بالموت، فلا يصح ضمان دينه. فقال: لا نسلم أنها صفة، بل عبارة عن التزام، ولم يفتِ.

وفي «**الفنون**» : الذمة؛ وإن كانت العهد؛ فالملك التسلط، فإذا بقي حكم الملك، ولا تسلط حقيقة في الميت؛ بقي حكم الذمة، وإن كان لا عهد حقيقة للميت. انتهىٰ كلام «**الفروع**».

وقال في موضع آخر: العهد غير الوعد، ويكون بمعنىٰ: اليمين، والأمان، والذمة، والحفظ، والرعاية، والوصية ... وغير ذلك.

قال: وفي سيد الاستغفار: «**وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت**»؛ قال ابن الجوزي: وقال المفسرون: العهد الذي يجب الوفاء به الذي يحسن فعله، والوعد من العهد. وقال في ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾: عام فيما بينه وبين ربه، وبين الناس.

ثم قال: قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ : كل ما أمر الله به ونهىٰ عنه؛ فهو من العهد. انتهىٰ.

فكأنه قال في هذا الدعاء: أنا علىٰ عهدك من امتثال ما أمرتني به، واجتناب ما نهيتني عنه.

الميثاق المأخوذ على بني آدم:

ولا يَبْعُدُ إرادة قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ الآية، وكان أَخْذُ هذا الميثاق من الملك الخلاق علىٰ خلقه كما جاء في الروايات بأرض نَعْمان من عرفات.

روىٰ الإمام ابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ قال: «**أخذ الله عز وجل الميثاق من ظهر آدم بنَعْمان ـ يعني: عرفة ـ فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كَلَّمهم قِبَلًا؛ قال: ألستُ بربكم؟ قالوا بلىٰ شهدنا**». رواه الإمام أحمد في «**المسند**»(٩٣).

فهذا الحديث دل علىٰ أن عرفات أول من وطن النفس، ولهذا تتوق النفوس إلىٰ تلك المعاهد؛ لأجل ذلك العهد.

ولي من قصيدة أذكر فيها شوقي وتوقي إلىٰ تلك الربوع والمعاهد، أحن إليها من القلق والولوع، وأذكر أن سبب الوله والتوقان أخذ العهد والميثاق بنَعْمان، وهي:

قلبي إلى أرض الحجاز يهيم ... وعلى هيامي شاهد وزعيم

(٩٣) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ١٥١) وصححه الشيخ أحمد شاكر.

أمـــا الشـــهيد فعبرتـــي وتـــأوهي ونحـــول جســـمي والفـــؤاد كلـــيم
وزعـــيم أشـــواقي إلـــى تلـــك الحمـــى عهـــد بنعمـــان الأراك قـــديم
تلـــك المعاهـــد والربـــوع معاهـــدي فيهـــا اللـــوى والســـفح والتنعـــيم

إلىٰ آخر القصيدة...

وقد روي أن الله سبحانه وتعالىٰ لما أخذ العهد علىٰ الذرية؛ كتب كتابًا عليهم فألقمه الحجر الأسود؛ فهو يشهد للمؤمنين بالوفاء، وعل الكافر بالجحود.

قال الحافظ ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في «**مثير الغرام الساكن**» وهذا مروي عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال العلماء: ولهذه العلة – لامِسُهُ – : إيمانًا بك، ووفاء بعهدك. انتهىٰ.

والوعد يستعمل في الخير والشر، يقال: وعدته خيرًا، ووعدته شرًّا؛ فإن أسقطوا الخير والشر؛ قالوا في الخير: الوعد والعدة، وفي الشر: الإيعاد والوعيد، وقد أوعده يوعده؛ كما في «**النهاية**».

وفي «القاموس»: وعده الأمر وبه يعده عدة ووعدًا وموعدًا أو موعدة وموعودًا وموعودة، خيرًا وشرًّا؛ فإذا أسقطا؛ قيل في الخير: وعد، وفي الشر: أوعد، وقالوا: وعد الخير، والميعاد وقته، والوعيد التهديد، والتوعد التهدد؛ كالإيعاد، والاتِّعاد قبول العدة، وأصله الاوتعاد، قلبوا الواو تاء، وأدغموا، وناس يقولون: أتعد يأتعد، فهو مؤتعد بالهمز، وفي الخبر: «**يا من إذا وعد وفىٰ، وإذا أوعد عفا**».

وقال الشاعر:

وإنـــي إن أوعدتـــه أو وعدتـــه لمخلـــف إيعـــادي ومنجـــز موعـــدي

❁ معنى «وأنا على وعدك»:

«**وأنا علىٰ وعدك**»: مقيم لا أحول ولا أزول، أفعل المأمور، وأجتنب المحظور، والله ولي الأمور. والاستطاعة: القدرة علىٰ الشيء، وقيل: هي استفعال من الطاعة؛ كما في «**النهاية**». قال في «**القاموس**»: استطاع: أطاق، ويقال: اسطاع، يحذفون التاء استثقالًا لها مع الطاء، ويكرهون إدغام التاء فيها، فتحرك السين، وهي لا تحرك أبدًا، وقرأ حمزة(٩٤) غير خلاد(٩٥): «**فما اسطاعوا**» بالإدغام، فجمع بين الساكنين، وبعض العرب تقول: استاع يستيع، وبعض يقول: اسطاع يسطيع، يقول: بقطع الهمزة بمعنىٰ أطاع يطيع، ويقال: تطاوع لهذا الأمر حتىٰ يستطيعه. وعلىٰ كل؛ فالمراد القيام بالعهد والوعد، ما دام له طوق وقدرة وحول وقوة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم.

معنى «أعوذ»(٩٦):

❁ قوله: «**أعوذ**»؛ أي: التجئ إليك، يقال: أعوذ عوذًا وعياذًا ومعاذًا؛ أي: لجأت، والمعاذ: المصدر والمكان والزمان، أي: لجأت إلىٰ ملجأ، ولذت بملاذ.

وقد تكرر في الحديث ذكر التعوذ والاستعاذة وما تصرف منهما، والكل بمعنىٰ: الالتجاء والاعتصام.

---

(٩٤) حمزة بن حبيب الزيات شيخ القراء، توفي سنة ١٥٦.

(٩٥) خلاد بن خالد الشيباني، كان إمامًا في القراءة، توفي سنة ٢٢٠.

(٩٦) قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعوذ بك من شر ما صنعت»: يعني أنت تعوذ بالله من شر ما صنعت، لأن الإنسان يصنع خيرا فيثاب، ويصنع شرا فيعاقب، ويصنع الشر فيكون سببًا ضلاله كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩] فأنت تتعوذ بالله من شر ما صنعت.

قال في «**المطلع**»: قوله: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»؛ أي: ألجأ إليه وأعتصم به. قال أبو عثمان في «**الأفعال**»: عاذ بالله عوذًا وعياذًا وأعاذ: لجأ إليه. وفي «**القاموس**»: العوذ: الالتجاء؛ كالعياذ، والمعاذ، والتعوذ، والاستعاذة. انتهىٰ.

۞ قوله: «**بك**»؛ أي: يا الله، هذا هو المستعاذ به؛ لأنه الذي تلتجئ إليه وتعتصم به؛ فكل متعوذ بغيره خائب، وكل معتصم بسواه ناكب، والمعنىٰ: أعوذ برحمتك وعفوك ورضاك ومغفرتك.

معنى: «من شر ما صنعت»:

۞ وقوله: «**من شر ما صنعت**»؛ أي: من شر صنعي، علىٰ أن ما موصول حرفي، ومن شر الذي صنعته، علىٰ أنها موصول اسمي، وهذا المستعاذ منه، ولما كان صنعه يشتمل علىٰ خير وشر؛ خص الاستعاذة من شر صنعه دون خيره؛ لأن الخير محبوب لله، وهو مأمور بفعله عهدًا وميثاقًا ووعدًا؛ بخلاف الشر؛ فإنه معاهد علىٰ تركه واجتنابه، علىٰ أنه قلما سلم فعل ـ وإن كان خيرًا ـ من آفة من شوائب الرياء والعجب ونحو ذلك، فتكون الآفات مستعاذًا منها، والمراد: أعوذ بك من غِبِّ شر ما صنعت، وعقوبته، وعدم عفوه وغفرانه، أو: ومن العود إلىٰ مثله من شر الأفعال وقبيح الأعمال.

معنى «أبوء لك بنعمتك علي» :

۞ قوله: «**أبوء لك بنعمتك عليَّ**»[(٩٧)]: من باء إليه: رجع وانقطع. قال في

---

(٩٧) قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : «أبوء لك بنعمتك علي»: يعني أعترف بنعمتك العظيمة الكبيرة التي لا أحصيها.

«**القاموس**»: باء إليه: رجع وانقطع، وبؤت به إليه وأبأته وبؤته. انتهىٰ.

ومنه: «**فليتبوأ مقعده من النار**»[٩٨]؛ أي: ينزل منزله منها ويتخذه؛ قيل: هذا علىٰ طريق الدعاء؛ أي: بوأه الله ذلك، وخرج مخرج الأمر، وقيل: بل هو علىٰ الخبر، وإن استحق ذلك واستوجبه، وفي الحديث الآخر: «**فقد باء بها أحدهما**»[٩٩]، و﴿تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾؛ قيل: ترجع به لازمًا لك، وتلزمه، وقيل: تحمله كرهًا وتلزمه، وأصله من الرجوع به منه: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾، والمعنىٰ: أعترف لك طوعًا بنعمتك، وكأنه من الأصل المقدم في الرجوع؛ أي: رجعت إلىٰ الإقرار والاعتراف، أو من اللزوم؛ أي: ألزمت ذلك نفسي واحتملته لك يا مولاي.

قال في «**الفتح**»: أصل البوء اللزوم، ومنه: «**أبوء بنعمتك**»؛ أي: ألزمها نفسي وأقِرُّ بِهَا، ولفظ النعمة وإن كان مفردًا، لكنه مضاف، فيعم كل نعمة من الظاهرة والباطنة من نعمة الإيمان والوجود من العدم، والذكورية، والسمع، والبصر، والمعرفة، والفهم، والعلم، والصحة، وغير ذلك من النعم اللاتي أنعم الله بها علىٰ عباده، ما لو أوتي العبد عمر الدنيا، وقطع ذلك العمر مستغرقًا في طاعة الله وعبادته، ولم يعصه في لحظة ولا لفظة؛ ما أدىٰ شكر عشر معشار نعمه سبحانه، بل لو أنفق كل عمره مضاعفًا إلىٰ ما لا نهاية من الأعمار؛ ما أدىٰ شكر نعمة واحدة، كيف والشكر نعمة تحتاج إلىٰ مثلها من الشكر؟ فلا سبيل إلىٰ تأدية شكر عشر معشار نعمه؛ إلا بالاعتراف بالعجز والتقصير.

---

(٩٨) ورد في «الصحيحين» في أكثر من مقام، منها: ما رواه البخاري في الجنائز (١٢٩١).

(٩٩) رواه البخارىٰ (٦١٠٤).

أركان الشكر:

والشكر مبنيٌّ علىٰ ثلاثة أركان: الاعتراف بالنعمة باطنًا، والتحدث بها ظاهرًا، وتعريفها في مرضاة وليها ومسديها؛ فإذا فعل ذلك؛ فقد شكرها مع تقصيره في شكرها، والله الموفق.

مطلب

نعم الله ﷻ تعم جميع الخلق وذكر الخلاف

فائدة: اختلف الناس؛ هل للباري جل شأنه، وتعالىٰ سلطانه علىٰ الكافر من نعمة أو لا؟

والجواب: إن نعم الباري لا تحصىٰ، ومِننه لا تستقصىٰ؛ فله علىٰ عباده من دقائق النعم وجلائلها ما يبهت العاقل، ويذهل اللبيب الفاضل؛ فقد أنشأهم من العدم إلىٰ الوجود، ومَنَّ عليهم بالحواس من السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس، والمشي، والبطش، والعقل، والفهم، والمعرفة، والعلم، والفكر، والعافية، والحفظ... إلىٰ غير ذلك من الحواس والقوىٰ الظاهرة والباطنة، وسخر لهم الليل والنهار، وأباح لهم المباحات، وأسبل عليهم الستر، ومنحهم الحياة، وكل هذه وأضعاف أضعافها مما يتعذر أو يتعسر حَصْرُه وسَبْرُه من نعم الله تعالىٰ علىٰ عباده؛ مِن جَلْبِ كل محبوب، ودَفْعِ كل مكروه، وتيسير كل ملائم، ومَنْعِ ما ليس كذلك.

أقسام النعم :

ولكن النعم من حيث هي - كما قال الإمام المحقق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه

«**الجيوش الإسلامية**» – نعمتان: نعمة مطلقة، ونعمة مقيدة:

فالمطلقة: هي المتصلة بسعادة الأبد، وهي نعمة الإسلام والسُّنة، وهي التي أمرنا الله أن نسأل في صلاتنا أن يهدينا صراط أهلها ومن خصهم بها، وجعلهم أهل الرفيق الأعلىٰ؛ حيث يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾.

فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل النعم المطلقة، وأصحابها أيضًا هم المعنيون بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾؛ فأضاف الدين إليهم؛ إذ هم المختصون بهذا الدين القيم دون سائر الأمم، والدين تارة يضاف إلىٰ العبد، وتارة إلىٰ الرب، فيقال: الإسلام دين الله الذي لا يقبل من أحد سواه، ولهذا يقال في الدعاء: «**اللهم انصر دينك الذي أنزلته من السماء**».

ونسبة الكمال إلىٰ الدين والتمام إلىٰ النعمة مع إضافتها إليه سبحانه؛ لأنه هو وليها ومسديها إليهم، وهم محل محض النعمة القابلين لها، ولهذا الدعاء المأثور للمسلمين: «**واجعلهم مثنين عليك بها، قابليها، وأتمها عليهم**»(١٠٠).

وأما الدين؛ فلما كانوا هم القائمين به، الفاعلين له بتوفيق ربهم؛ نسبه إليهم، فقال تعالىٰ: ﴿أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، وكان الكمال في جانبه، والتمام في جانب النعمة، واللفظتان – وإن تقاربا – فبينهما فرق لطيف يظهر بالتأمل؛ فإن الكمال أخص بالصفات والمعاني، ويطلق علىٰ الأعيان والذوات، وذلك باعتبار صفاتها

(١٠٠) ورد ذلك في حديث مرفوع: رواه أبو داود (٩٦٩) وصححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

وخواصها؛ كما قال النبي ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد**»(١٠١).

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ : «إن للإيمان حدودًا وسننًا وشرائع؛ فمن استكملها؛ فقد استكمل الإيمان».

وأما التمام؛ فيكون في الأعيان والمعاني، ونعمة الله سبحانه أعيان وأوصاف ومعان.

وأما دينه؛ فهو شرعه المتضمن لأمره ونهيه ومحابه.

فكانت نسبة الكمال إلىٰ الدين والتمام إلىٰ النعمة أحسن، وكانت إضافة الدين إليهم والنعمة إليه أحسن.

قال: «فإذا علمت هذا؛ فالنعمة المطلقة قد اختصت بالمؤمنين».

فإذا قيل: ليس لله علىٰ كافر نعمة بهذا الاعتبار؛ فهو صحيح.

وأما النعمة الثانية: فهي المقيدة؛ كنعمة السمع، والبصر، والصحة، والغنىٰ، والعافية، وبسط الجاه، وكثرة الولد، والزوجة الحسنة، وأمثالها؛ فهذه مشتركة بين البر والفاجر، والمؤمن والكافر.

فإذا قيل: لله علىٰ الكافر نعمة بهذا الاعتبار؛ فهو حق.

فلا يصح إطلاق السلب والإيجاب إلا علىٰ وجه واحد، وهو أن النعم المقيدة لما كانت استدراجًا للكافر، ومآلها للعذاب والشقاء؛ فكأنها لم تكن نعمة، وإنما

(١٠١) رواه البخاري (٥٤١٨) ومسلم (٢٤٣١).

كانت بلية ونقمة؛ كما سماها الله تعالىٰ في كتابه كذلك، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾؛ أي: ليس كل من أكرمته في الدنيا ونعمته فيها؛ فقد أنعمت عليه، وإنما ذلك ابتلاء مني له واختبار، ولا كل من قدرت عليه رزقه، فجعلته بقدر حاجته، من غير فضلٍ، أكون قد أهنته، بل أبتلي عبدي بالنعم كما أبتليه بالمصائب.

فإن قيل: كيف يتفق هذا مع قوله: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾؛ فأثبت له الإكرام والنعمة، ثم أنكر عليه قوله: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾، فقال: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس ذلك إكرامًا مني، وإنما هو ابتلاء؛ فكأنه أثبت له الإكرام ونفاه ؟!

فالجواب: أن الإكرام المثبت غير المنفي، وهما من جنس النعمة المطلقة والمقيدة؛ فليس هذا الإكرام المقيد بموجب لصاحبه أن يكون من أهل الإكرام المطلق، وكذلك إذا قيل: أن الله أنعم علىٰ الكافر نعمة مطلقة، ولكنه رد نعمة الله وبدلها؛ فهو بمنزلة من أعطي مالًا يعيش به، فرماه في البحر؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾، وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾؛ فهدايته إياهم نعمة منه عليهم، فبدلوا نعمته، وآثروا عليها الضلال.

فقد ظهر فصل الخطاب في مسألة: هل لله علىٰ الكافر نعمة أو لا ؟ وأكثر اختلاف الناس من جهتين:

إحداهما: اشتراك الألفاظ وإجمالها.

والثانية: من جهة الإطلاق والتفضيل.

والله وليُّ الهداية والتفصيل.

مطلب

شكر النعم يديمها، وكفرها يزيلها:

تنبيه: في قوله: «**أبوء لك بنعمتك عليَّ**»: اعتراف وإذعان بعظيم نعمة المنان عليه، وترادف الفضل والإحسان لديه، وفي ضمن ذلك شكر المنعم سبحانه وتعالىٰ، والتبري من كفران النعم.

قال جل شأنه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾

وروىٰ أبو داود والترمذي وحسنه من حديث جابر رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أُبليَ بلاءً فذكره؛ فقد شكره، وإن كتمه؛ فقد كفره**»[(١٠٢)].

وروىٰ الإمام أحمد رحمه الله بإسناد حسن عن النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعًا: «**من لم يشكر القليل؛ لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس؛ لم يشكر الله عز وجل، والتحدث بنعمة الله عز وجل شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب**»[(١٠٣)].

وروىٰ الطبراني بسند حسن عن سخبرة ـ بمهملة ثم معجمة فموحدة وزن مسلمة ـ رضي الله عنه رفعه: «**ومن أعطي فشكر، وابتُلي فصبر، وظَلَم فاستغفر، وظُلِم فغفر؛ أولئك لهم الأجر وهم مهتدون**»[(١٠٤)].

---

(١٠٢) حديث صحيح: رواه أبو داود (٤٨١٤) وصححه الشيخ الألباني رحمه الله ورواه الترمذي (٢٠٣٤) وقال «حسن غريب».

(١٠٣) رواه أحمد (٤/ ٢٧٨،٣٧٥) من طريق الجراح بن مليح – والد وكيع – عن أبي عبدالرحمن عن الشعبي عن النعمان بن بشير، وإسناده ضعيف، وللحديث شواهد يُحَسَّنُ بها، راجع «السلسلة الصحيحة» (٦٦٧).

(١٠٤) حديث موضوع: رواه الطبراني في «الكبير» (٧/ ١٣٨) وفي إسناده أبو داود نُفيع بن الحارث، وهوكذاب.

وقال سليمان التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الله عَزَّ وَجَلَّ أنعم علىٰ عباده بقدر طاعتهم، وكلفهم الشكر بقدر طاقتهم؛ فكل شكرٍ ـ وإن قلَّ ـ ثمن لكل نوال وإن جل؛ فإذا لم يشكر المرء؛ فقد عرض النعمة للزوال، ووسمها بسمة الإضلال.

وفي كلام بعضهم: إن حقًّا علىٰ من لعب بنعم الله عَزَّ وَجَلَّ أن يسلبه إياها.

وقد قيل: الشكر قيد للنعم الموجودة، وصيد للنعم المفقودة.

وقالوا: كفران النعم بوار، وهو وسيلة إلىٰ الفرار.

وفي كلام سيدنا عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إذا وصل إليكم أطراف النعم؛ فلا تنفِّروا أقصاها بقلة الشكر**».

وفي كلام بعضهم: «**استدع شاردها بالشكر، واستدم راهنها بلزوم حسن الجوار، وحَصِّن نعمتك من الزوال بكثرة العطايا والإفضال**».

وفي كلام الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ وقد سئل عن الشكر: هو أن لا يُعَصىٰ الله سبحانه وتعالىٰ بنعمه.

ونحو هذا قول سيدنا الإمام عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [١٠٥] في حديثه الطويل الذي رواه عنه كُميل بن زياد النخعي؛ كما عند أبي نعيم [١٠٦] وغيره في ذم بعض حملة العلم الذي

---

(١٠٥) لا ينبغي تخصيص عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالإمامة دون سائر الخلفاء الراشدين، بل هم الأئمة من قبله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ونظير هذا قول بعضهم: «عليه السلام» وقولهم: «كرم الله وجهه» قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب، أن يُفرِد عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن يقال: «عليه السلام»، من دون سائر الصحابة، أو: «كرم الله وجهه» وهذا وإن كان معناه صحيحًا، لكن ينبغي أن يُسَاوىٰ بين الصحابة في ذلك؛ فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان بن عفان أولىٰ بذلك منه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(١٠٦) في «الحلية» (١/ ٧٩،٨٠) وإسناده ضعيف.

يستعمل آلة الدين للدنيا؛ يستظهر بحجج الله علىٰ كتابه، وبنعمه علىٰ عباده؛ فهذا عصىٰ الله سبحانه بنعمه، فاستظهر بنعمه جل شأنه علىٰ عباده، واختال وتكبر، وتعاظم وتجبَّر؛ فقد كفر النعمة، وخان الأمانة؛ فما أجدره بسرعة سلبها عنه، ونزعها منه؛ لأنه عرَّضها للنفور، ونعم الباري سبحانه لا تقر عند كفور، والله وليُّ الأمور.

❁ قوله: «**وأبوء**»[١٠٧]؛ أي: أرجع علىٰ نفسي بالإقرار والاعتراف.

❁ «**بذنبي**»؛ أي: إثمي؛ فالذنب هو الإثم، والجمع ذنوب، وجمع الجمع: ذنوبات، قال في «**لسان العرب**»: الذنب: الإثم، والجرم، والمعصية. انتهىٰ.

وإنما سُمي ذنبًا؛ لتوقع المؤاخذة عليه؛ لترتبها علىٰ فعله.

ويشمل فِعْلَ كل محظور، وتَرْكَ كل واجب؛ مِن تَرْكِ الصلوات، ومَنْعِ الزكاة، وعدم صوم رمضان، والحج إلىٰ بيت الله الحرام مع الاستطاعة، وترك شكر النعم.

والحاصل: أنه اعترف بكل ذنب؛ مِن تقصير في أداء واجب، أو فِعْلِ محظور مِن موبقات الذنوب؛ كالزنىٰ، وأكل الربا، وقتل النفس، والسحر والفرار من الزحف إذا لم يزد العدو علىٰ ضعف المؤمنين قوة إلا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلىٰ فئة، وعقوق الوالدين، ومِن فِعْلِ كل كبيرة وصغيرة من الذنوب المترتب عليها من الذم والحوب من علام الغيوب؛ إلا أن يعفو عن عبده أو يتوب العبد فيتوب الله عليه.

---

(١٠٧) قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأبوء بذنبي»: أعترف به «فاغفر لي» هذا الذنب، إنك أنت الغفور الرحيم، فاحرص علىٰ حفظ هذا الدعاء وحافظ عليه صباحًا ومساء، إن مت من يومك، فأنت من أهل الجنة، وإن مت من ليلتك فأنت من أهل الجنة.

أقسام الذنوب :

تنبيه: اعلم أن الذنوب علىٰ قسمين: تَرْكُ فريضة ـ وهي معصية إبليس ـ لعنه الله تعالىٰ، وفِعْلُ محرم، وهي معصية أبينا آدم عليه الصلاة والسلام؛ فقد أُمر إبليس بالسجود فأبىٰ، وآدم عليه السلام نُهي عن الأكل من الشجرة فأكل وما عبئ، ثم إن الله سبحانه تاب علىٰ أبينا آدم لتوبته، وبقي إبليس اللعين علىٰ حوبته.

ثم تنقسم من حيث أصولها إلىٰ أربعة أقسام: ربوبية، وشيطانية، وبهيمية، وسَبُعِية.

فالربوبية: تَشبُّه العبد الذليل بصفات مولاه الجليل؛ من الرفعة، والعظمة، والكبرياء، والعز، والغنىٰ، والقهر، والاستيلاء، فمن تشبه بشيء من ذلك؛ فقد نازع الربوبية حقها، وأوجب علىٰ نفسه حرقها.

والشيطانية: التشبه بصفات الشيطان الرجيم؛ من الحسد، والبغي، والحيلة، والخداع، والغش، والنفاق، والدعوة إلىٰ المعاصي، والكفر، والبدَع، والضلال؛ فمن فعل شيئًا من ذلك؛ فسَلفه فيه ومقتفاه عدوُّ الله إبليس الخسيس.

والبهيمية: التشبه بصفات البهائم؛ من الشدة، والحرص علىٰ قضاء شهوة البطن والفرج كيف اتفق ذلك، ومنها يتشعب الزنىٰ، والسرقة، والخيانة، والفرقة، وأكل أموال الأيتام، وجمع المال الحرام، والبخل، والادخار لقضاء الأوطار، وعدم حفظ الجوار.

والسبعية: التشبه بصفات السباع؛ من الغضب، والحقد، ومنها يتشعب القتل، وإيذاء الخلق، واغتصاب أموالهم.

أول أقسام الذنوب استيلاء على الإنسان:

وأول ما يستولي علىٰ الإنسان البهيمية؛ فإذا عظم وتزايدت قوته؛ دخلت عليه السبعية؛ فإذا قويت فكرته المعكوسة، ولم يوفق؛ استعملته في المكر والخداع والحيل والابتداع، ثم يدخل عليه منازعة الربوبية حقوقها، حينئذٍ تعظم البلية وتكبر الرزية.

أقسام الذنوب بالنسبة لضررها:

ثم إن الذنوب تنقسم إلىٰ قسمين بالنظر إلىٰ ضررها ومزيد العقوبة عليها إن لم يعفُ العفوُّ الغفور:

إلىٰ كبيرة: وهي ما فيه حَدٌّ في الدنيا ووعيد في الآخرة، وزاد شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – : أو جاء وعيده بنفي إيمان أو لعن علىٰ فعله.

وإلىٰ صغيرة: وهي كل معصية ليس فيها ذلك.

والتوبة من الجميع واجبة، خِلافًا لمن لم يوجبها من الصغائر؛ لكونها تقع مكفرة باجتناب الكبائر والوضوء والصلوات؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

والصواب وجوبها مطلقًا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ فأمر بالتوبة عقب ذكر الصغائر والكبائر.

وأمر بالتوبة من الصغائر بخصوصها في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قال الإمام الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن الناس من لم يوجب التوبة من الصغائر، وحُكيَ عن طائفة من المعتزلة، ومن الناس من قال: يجب الإتيان بأحد أمرين: التوبة أو مكفر الذنوب من تلك الحسنات.

والحق المعتمد وجوب التوبة مطلقًا، والله الموفق».

معنى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِي﴾:

❁ قوله: «**فاغفر لي**»: يا الله جميع ذنوبي، ولفظ الذنب في الدعاء - وإن كان مفردًا - فإنه يعم كل ذنب؛ لأنه مضاف لياء المتكلم؛ كما أشرنا إليه آنفًا.

والغفران والمغفرة والتكفير متقاربة المعاني؛ فالغفران والمغفرة مأخوذة من الغَفْر، وهو الستر، فكأنها ستر الذنوب أو وقاية شرها مع سترها، ولهذا سمي ما ستر الرأس ووقاه في الحرب: مِغْفرًا، ولا يُسَمَّىٰ كل ساتر للرأس مغفرًا، وقد أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن الملائكة عليهم السلام أنهم يدعون للمؤمنين التائبين بالمغفرة، ووقاية السيئات والتكفير من هذا الجنس؛ لأن أصل الكفر الستر والتغطية.

الفرق بين التكفير والمغفرة:

وفرق بعض المتأخرين بين المغفرة والتكفير بأن التكفير محو أثر الذنب حتىٰ

كأنه لم يكن، والمغفرة تتضمن من ذلك إفضال الله علىٰ العبد وإكرامه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في «**شرح الأربعين النووية**»: «وفي هذا نظر».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد يفسر بأن مغفرة الذنب بالأعمال الصالحة بقلبها حسنات وتكفيرها بالمكفرات تمحوها فقط» ثم نظر فيه أيضًا؛ قال: «لأنه قد صح أن الذنوب المعاقب عليها بدخول النار تبدل حسنات، والمكفرة بعمل صالح تكون كفارة لها أولىٰ».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ويحتمل معنيين آخرين:

أحدهما: أن المغفرة لا تحصل إلا مع عدم العقوبة والمؤاخذة؛ لأنها وقاية شر الذنب بالكلية، والتكفير قد يقع بعد العقوبة؛ فإن المصائب الدنيوية كلها مكفرات للخطايا، وهي عقوبات، وكذلك العفو يقع مع العقوبة وبدونها، وكذلك الرحمة.

والثاني: أن الكفارات التي جعلها الله لمحو الذنوب المكفرة بها، ويكون ذلك هو ثوابها، ليس لها ثواب غيره، والغالب عليه أن تكون من جنس مخالفة هوىٰ النفس، وتجشم المشاق؛ كاجتناب الكبائر الذي جعله الله كفارة للصغائر.

وأما الأعمال التي تغفر بها الذنوب؛ فهذا ما عدا ذلك، ويجتمع فيها المغفرة والثواب عليها؛ كالذكر الذي تكتب به الحسنات، وتمحىٰ به السيئات.

وعلىٰ هذا الوجه؛ فيفرق بين الكفارات من الأعمال وغيرها، وأما تكفير الذنوب ومغفرتها إذا أضيف ذلك إلىٰ الله؛ كفر الله ذنبه وكفر سيئته؛ فلا فرق بينهما، وعلىٰ الوجه الأول يكون بينهما فرق أيضًا.

بعض ما ورد في محو السيئات :

تنبيه: روىٰ الترمذي وحسنه عن أبي ذر ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالِق الناس بخلق حسن**»(١٠٨).

فظاهر هذا الحديث كظاهر قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وما شابه ذلك من الآثار: أن السيئة تمحىٰ من صحف الملائكة بالحسنة إذا عُمِلَتْ بعدها.

وقد قال عطية العوفي رحمه الله: «**بلغني أنه من بكىٰ علىٰ خطيئة؛ مُحيت عنه وكُتبت له حسنة**».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «**من ذكر خطيئة عملها، فوجل قلبه منها، فاستغفر الله عز وجل؛ لم يحبسها شيء حتىٰ يمحوها عنه الرحمن**».

وقال بشر بن الحارث: بلغني عن الفضيل بن عياض؛ قال: «**بكاء النهار يمحو ذنوب العلانية، وبكاء الليل يمحو ذنوب السر**».

لا تمحى السيئات من الصحائف إلا بعد أن يوقف العبد عليها :

وقالت طائفة: لا تمحىٰ الذنوب من صحائف الأعمال بتوبة ولا غيرها، بل لابد أن يُوقَفَ عليها صاحبها ويقرأها يوم القيامة، واستدلوا بقوله تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ

---

(١٠٨) حديث حسن: رواه الترمذي (١٩٨٧) عن أبي ذر رضي الله عنه وقال: حسن صحيح، وحسنه الألباني رحمه الله.

ورواه الترمذي (١٩٨٧) أيضًا عن معاذ، ورواه أحمد (٥/ ٢٣٦) والبيهقي في «الشعب» (٧٦٦٠).

﴿ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾.

وفي هذا نظر؛ لأنه إنما ذكر فيها حال المجرمين، وهم أهل الجرائم والذنوب العظيمة؛ فلا يدخل فيهم المؤمنون التائبون من ذنوبهم، أو المغفورة ذنوبهم بحسنات.

وأظهر من هذا الاستدلال بقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذا القول هو الصحيح عند المحققين.

وروي عن الحسن البصري وبلال بن سعد الدمشقي:

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العبد يذنب ثم يتوب ويستغفر: يغفر له، ولكن لا يمحاه من كتابه دون أن يقف عليه، ثم سأله عنه، ثم بكىٰ الحسن بكاء شديدًا، وقال: «لو لم نبك إلا للحياء من ذلك المقام؛ لكان ينبغي لنا أن نبكي».

وقال بلال بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله يغفر الذنوب، ولكن لا يمحوها من الصحيفة، حتىٰ يوقف عليها يوم القيامة وإن تاب».

وقال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**يدني الله العبد يوم القيامة، فيضع عليه كنفه، فيستره من الخلائق كلها، ويدفع إليه كتابه في الستر، فيقول: اقرأ يا بن آدم كتابك. فيقرأ، فيمر علىٰ الحسنة فَيَبْيَضُّ لها وجهه ويُسَرُّ بها قلبه، فيقول: أتعرف يا عبدي؟ فيقول: نعم. فيقول: إني قبلتها منك. فيسجد، فيقول: ارفع رأسك، وعد في كتابك. فيمر بالسيئة، فيسوَدُّ لها وجهه، ويَوْجَلُ منها قلبه، وترعُدُ منها فرائصه، ويأخذه من الحياء من ربه**

ما لا يعلمه غيره، فيقول: أتعرف يا عبدي؟ فيقول: نعم يا رب! فيقول: إني قد غفرتها. فيسجد، فلا يُرىٰ من الخلائق إلا السجود، حتىٰ ينادي بعضهم بعضًا: طوبىٰ لهذا العبد الذي لم يعص الله قط، ولا يدرون ما قد لقي فيما بينه وبين ربه ﷻ مما قد وقفه عليه».

وأصحاب هذا القول يحملون أحاديث محو السيئات بالحسنات علىٰ محو عقوباتها دون محو كتابتها من الصحف.

مطلب

والحاصل أن الله تعالىٰ يغفر الذنوب للعبد المؤمن بالحسنات والتوبة والمكفرات والاعتراف؛ فمن ثم اعترف العبد في هذا الدعاء بالذنب، وأقرَّ به علىٰ نفسه، ثم طلب من الله الغفور الرحيم أن يغفره له بمنِّه وكرمه، ثم نفض يديه من الحول والقوة، والتجأ إلىٰ سعة عفو الله وغفرانه؛ معترفًا بذنوبه، وأنه لا يغفرها إلا هو بقوله.

❁ «**فإنه**»؛ أي: الشأن والأمر.

❁ «**لا يغفر الذنوب**»؛ أي: يقي شرها، ويستر ضرها.

❁ «**إلا أنت**»: وحدك لا شريك لك، والاعتراف يمحو الاقتراف كما قيل:

فإن اعتراف المرء يمحو كما أن إنكار الذنوب ذنوب

ومنه الإقرار بالوحدانية واستجلاب المغفرة؛ فهو كقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ فأثنىٰ علىٰ المستغفرين، وفي ضمن ثنائه عليهم

بالاستغفار تلويح بالأمر به؛ كما قيل: إن كل شيء أثنىٰ الله علىٰ فاعله؛ فهو آمِرٌ به، وكل شيء ذم فاعله؛ فهو ناهٍ عنه؛ كما في «**الفتح**».

ولما كان العبد لا ينفك عن نعمة يشكر عليها مولاه، ومصيبة يصبر عليها امتثالًا لأمر الله ورضاءً بقضائه، أو معصية يستغفر الله ويتوب إليه منها فيكون إذا أنعم الله عليه شكر، وإذا ابتلاه صبر، وإذا أذنب اعترف بذنبه واستغفر؛ اعترف في هذا الدعاء بالذنب، وطلب من مولاه غفرانه؛ لأنه لا يغفر الذنوب إلا هو سبحانه، بعد اعترافه بالنعم المترادفة عليه؛ ففي ضمن الاعتراف بالذنوب بعد الاعتراف بالنعم اعتراف بالتقصير في الشكر؛ كما نبهنا عليه سابقًا.

ولما كان العبد مبتلىً بالشهوة والغفلة والغضب، وكان الشيطان مسلطًا علىٰ الإنسان في هذه الدار، وله عليه أعوان من نفسه؛ كان لابد وأن ينال منه؛ لأن دخوله عليه من هذه الأبواب يسهل ولو احترز العبد؛ إذ لابد له من غفلة ومن شهوة ومن غضب، والنفس تطلب وتتمنىٰ.

وقد كان آدم أبو البشر عليه السلام أحكم الخلق وأرجحهم عقلًا وأثبتهم، ومع هذا؛ فلم يزل به عدو الله حتىٰ أوقعه فيما أوقعه فيه؛ فما الظن بفراشة الحلم، ومَن عَقْلُه في جنب عقل أبيه كتفلة في يم؟!

غير أن عدو الله لا يخلص إلىٰ المؤمن إلا غَيلةً علىٰ غِرَّة وغفلةٍ؛ فيوقعه في الذنب، ويظن أنه لا يستقبل ربه بعدها، وأن تلك الزلة قد اجتاحته وأهلكته، وعفو الله ومغفرته وراء ذلك.

فإذا أراد الله سبحانه بعبده خيرًا؛ فتح له من باب التوبة والاستغفار، والندم

والانكسار، والذل والافتقار، ودوام التضرع والابتهال، والدعاء والاحتفال، ما تكون تلك السيئة سبب رحمته، حتىٰ يقول عدو الله: يا ليتني تركته ولم أوقعه فيها.

السيئة التي تدخل الجنة والحسنة التي تدخل النار:

وهذا معنىٰ قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار. قالوا: كيف؟ قال: يعمل الذنب؛ فلا يزال نصب عينيه؛ خائفًا منه، مشفقًا، وجِلًا، باكيًا، نادمًا، مُسْتَحْيِيًا من ربه، ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب؛ فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة؛ لما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتىٰ يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة. ويفعل الحسنة؛ فلا يزال يَمُنُّ بها علىٰ ربه، ويتكبر بها، ويرىٰ نفسه، ويعجب بها، ويستطيل بها، ويقول: فعلت وفعلت؛ فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه؛ فإذا أراد الله بهذا المسكين خيرًا؛ ابتلاه بأمر يكسره به، ويذل به عنقه، ويصغر به نفسه عنده، ومن أراد به غير ذلك؛ خلَّاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه؛ فإن العارفين كلهم مجمعون علىٰ أن التوفيق أن لا يكلك الله إلىٰ نفسك؛ فمن أراد الله به خيرًا؛ فتح له باب الذل والانكسار ودوام اللُّجْءِ إلىٰ الله، والافتقار والاعتراف بالذنوب والأوزار، ورؤية عيوب نفسه وكثرة الاستغفار، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه، وبرِّه وجوده وامتنانه.

العارف يسير بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس:

قال الإمام المحقق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «**الكلم الطيب**» عن أبي إسماعيل الأنصاري شيخ الإسلام وإمام العارفين صاحب كتاب «**منازل السائرين**»: «العارف

يسير إلىٰ الله بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالعارف سائر إلىٰ الله بين هذين الجناحين، لا يمكنه أن يسير إلا بهما؛ فمتىٰ فاته واحد منهما؛ فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا معنىٰ قوله ﷺ في حديث سيد الاستغفار: «**أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي؛ فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»؛ فجمع في قوله: «**أبوء لك...**» إلخ بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل؛ فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لوليِّ النعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس والعمل يوجب الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كل وقت، وأن لا يرىٰ نفسه إلا مفلسًا».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأقرب باب دخل منه العبد علىٰ الله باب الإفلاس؛ فلا يرىٰ لنفسه حالًا ولا مقامًا ولا سببًا يتعلق به، ولا وسيلة منة يمن بها، بل يدخل علىٰ الله من باب الافتقار الصرف والإفلاس المحض؛ دخول مَن قد كَسَرَ الفقر والمسكنة قلبه، حتىٰ وصلت تلك الكسرة إلىٰ سويداء قلبه وانصدع، وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلىٰ ربه، وفاقته وفقره إليه، وأن له في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة وضرورة كاملة إلىٰ ربه، وأنه إن تخلَّىٰ عنه طرفة عين؛ هلك وخسر خُسرًا لا يجبر؛ إلا أن يعود الله عليه، ويتداركه برحمته؛ فمن بنىٰ سلوكه إلىٰ الله علىٰ هذين الأصلين - أعني: مشاهدة المنة، ومشاهدة عيب النفس والعمل- لم يظفر عدوه به إلا علىٰ غِرَّة وغفلة، وما أسرع ما ينعشه الله ويجبره ويتداركه ويرحمه، ولاسيما مع اعترافه بذنوبه، وأنه لا يغفرها إلا هو سبحانه.

سعة عفو الله ومغفرته:

كما ذكر الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في «**شرح الأربعين النووية**» من حديث سعيد بن جبير عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا:

«يأتي الله تعالىٰ بالمؤمن يوم القيامة، فيقربه، حتىٰ يجعله في حجابه من جميع الخلق، فيقول له: اقرأ. فيعرِّفه ذنبًا ذنبًا؛ أتعرف؛ أتعرف؟ فيقول: نعم، نعم. فيلتفت العبد يمنة ويسرة، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: لا بأس عليك يا عبدي؛ أنت في سِتري من جميع خلقي، ليس بيني وبينك اليوم أحد يطلع علىٰ ذنوبك غيري، اذهب؛ فقد غفرتها لك بحرف واحد من جميع ما أتيتني. قال: ما هو يا رب؟ قال: كنت لا ترجو العفو من أحد غيري»[(١٠٩)].

وفي حديث أبي ذر المرفوع: «**يقول الله عَزَّوَجَلَّ: من علم منكم أني ذو قدرة علىٰ المغفرة، ثم استغفرني؛ غفرت له ولا أبالي**»[(١١٠)].

وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه مرفوعًا: «**إن ربك ليعجب من عبده إذا قال: رب اغفر لي ذنوبي؛ يعلم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري**»[(١١١)].

فمن أعظم أسباب المغفرة أن العبد إذا أذنب ذنبًا لم يرج مغفرته من غير ربه، ويعلم أنه لا يغفر الذنوب ويأخذ بها غيره.

---

(١٠٩) رواه الطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٠) وإسناده ضعيف، ويغني عنه ما رواه البخاري في «صحيحه» (٧٥٠٧) ومسلم (٢٧٥٨) عن أبي هريرة مرفوعًا: «إن عبدًا أذنب ذنبًا...» الحديث.

(١١٠) حديث صحيح: تقدم تخريجه في أول الكتاب.

(١١١) حديث صحيح: رواه أبو داود (٢٦٠٢) والترمذي (٣٤٤٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه القدسي مرفوعًا: «**إنك ما دعوتني ورجوتني؛ غفرت لك ما كان منك ولا أبالي**»[١١٢]؛ يعني: علىٰ كثرة ذنوبك وخطاياك؛ فلا يتعاظمني ذلك ولا أستكثره.

وفي «**الصحيح**»[١١٣] عن النبي ﷺ: «**إذا دعا أحدكم؛ فليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء**»؛ فذنوب العباد وإن عظمت؛ فعفو الله ومغفرته أعظم منها؛ فهي صغيرة في جنب عفو الله ومغفرته.

وفي «**صحيح الحاكم**»[١١٤] عن جابر رضي الله عنه؛ أن رجلًا جاء إلىٰ النبي ﷺ؛ يقول: واذنوباه! مرتين أو ثلاثًا. فقال له النبي ﷺ: «**قل: اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجىٰ عندي من عملي**» فقالها، ثم قال له: «**عد**» فعاد، ثم قال له: «**عد**» فعاد، فقال له: «**قم؛ فقد غَفر الله لك**».

وفي هذا يقول بعضهم:

يا كبير الذنب عفو الله ... منه من ذنبك أكبر
وعظيم الذنب في جنب ... عفو الله يصغر

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

تعاظم لي ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

وقال غيره:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم

---

(١١٢) حديث حسن: رواه الترمذي وتقدم تخريجه في أول الكتاب.

(١١٣) رواه مسلم (٢٦٧٩) عن أبي هريرة.

(١١٤) رواه الحاكم (١/ ٥٤٣، ٥٤٤) وضعفه الشيخ الألباني رحمه الله.

إن كـــان لا يرجـــوك إلا محســـن فمـــن الـــذي يرجـــو ويـــدعو المـــذنب
مـــا لـــي إليـــك وســـيلة إلا الرجـــا وجميـــل عفـــوك ثـــم أنـــي مســـلم

تنبيهان:

الأول: من أسباب المغفرة: الاستغفار. والاستغفار: طلب المغفرة، وتقدم أنها وقاية شر الذنوب مع سترها. وقد كثر في القرآن ذكر الاستغفار:

فتارة بصيغة الأمر به؛ كقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ وتارة بمدح أهله؛ كقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾، ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وتارة يذكر أن الله يغفر لمن استغفره كقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وكثيرًا ما يُقرن الاستغفار بذكر التوبة، فيكون عبارة عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلب والجوارح، وتارة يفرد الاستغفار ويرتب عليه المغفرة؛ كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند الترمذي مرفوعًا: «**ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني؛ غفرت لك**»، وما أشبهه من الأحاديث؛ فهل يراد به الاستغفار المقترن بالتوبة، أو يراد به أنه مقيد بعدم الإصرار؛ كما في آية آل عمران؛ فإن الله وعد فيها المغفرة لمن استغفره من ذنوبه، ولم يصر علىٰ ما فعله، فتُحمل النصوص المطلقة في الاستغفار علىٰ هذا المقيد.

اقتران الاستغفار بالتوبة وعدم الإصرار:

والتحقيق في هذا كله أن قول القائل: «**اللهم اغفر لي**»: طلب من الله المغفرة،

ودعاء بها، فيكون حكمه حكم سائر الدعاء لله؛ فإن شاء الله؛ أجابه وغفر لصاحبه، ولاسيما إذا خرج عن قلب منكسر بالذنب، أو صادف ساعة إجابة؛ كالأسحار وأدبار الصلوات.

ويروىٰ عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: يا بني؛ عوِّدْ لسانك: اللهم اغفر لي، فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلًا.

وقال الحسن: أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلىٰ موائدكم، وفي طرقكم، وأسواقكم، وفي مجالسكم أينما كنتم؛ فإنكم لا تدرون متىٰ تنزل المغفرة.

وروىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب «**حسن الظن**» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**بينا رجل مستلق؛ إذ نظر إلىٰ السماء وإلىٰ النجوم، فقال: إني لأعلم أن لك ربًّا خالقًا، اللهم، اغفر لي. فغفر له**»[(١١٥)].

وعن مغيث بن سمي؛ قال: «بينا رجل خبيث، فتذكر يومًا؛ قال: اللهم غفرانك، اللهم غفرانك، اللهم غفرانك. ثم مات، فغفر له». ويشهد لهذا ما في «**الصحيحين**»[(١١٦)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «**أن عبدًا أذنب ذنبًا، فقال: رب أذنبت ذنبًا؛ فاغفر لي. قال الله عز وجل: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنوب ويأخذ به؛ فغفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال مثل الأول مرتين أخريين**». وفي رواية لمسلم[(١١٧)]: «**أنه قال في الثالثة: قد غفرتُ لعبدي؛**

---

(١١٥) ضعيف: رواه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (١٠٦) وفي إسناده عبد الله بن جعفر، وهو ضعيف.

(١١٦) «صحيح البخاري» (٧٥٠٧)، «صحيح مسلم» (٢٧٥٨).

(١١٧) «صحيح مسلم» (٢٧٥٨).

فليعمل ما شاء»، والمعنىٰ: ما دام علىٰ هذه الحال؛ كلما أذنب استغفر.

حقيقة الاستغفار ومعناه:

والمراد الاستغفار المقرون بعدم الإصرار؛ كما في حديث الصِّدِّيق رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**ما أصر من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة**»، رواه أبو داود والترمذي(١١٨). وأما استغفار اللسان مع إصرار القلب علىٰ الذنب؛ فهو دعاء مجرد: إن شاء الله أجابه، وإن شاء رده، وربما يكون الإصرار مانعًا من الإجابة.

وفي «**المسند**» من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا: «**ويل للذين يصرون علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون**»(١١٩). وروىٰ ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمستغفر من ذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه**». روي مرفوعًا، ورَفْعُهُ منكر، ولعله موقوف(١٢٠).

فقول القائل: «**أستغفر الله**»؛ أي: أطلب مغفرته؛ فهو كقوله: اللهم اغفر لي. فالاستغفار التام الموجب للمغفرة هو ما قارن عدم الإصرار، قال بعض العارفين: «**من لم يكن ثمرة استغفاره تصحيح توبته؛ فهو كاذب في استغفاره**».

الثاني: اعلم أن أفضل الاستغفار ما اقترن به تَرْكُ الإصرار، وهو حينئذٍ توبة نصوح، وأما إن قال بلسانه: أستغفر الله؛ وهو غير مقلع بقلبه؛ فهو داع لله بالمغفرة؛ كما يقول: اللهم اغفر لي، وهو حسن، وقد يرجىٰ له الإجابة، وأما من قال: هو توبة

---

(١١٨) حديث ضعيف: رواه أبو داود (١٥١٤) والترمذي (٣٥٥٩).

(١١٩) حديث حسن: رواه أحمد (٢/ ١٦٥) وجوَّد إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٠٢) وابن حجر في «الفتح» (١/ ١١٢).

(١٢٠) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٨٣).

الكاذبين؛ فمراده أنه ليس بتوبة كما يعتقده بعض الناس، وهذا حق؛ فإن التوبة لا تكون مع الإصرار.

حالات الاستغفار:

فإن قال العبد: أستغفر الله وأتوب إليه؛ فله حالتان:

- أن يكون مصرًّا بقلبه علىٰ ذنبه؛ فهذا كاذب في قوله: «**وأتوب إليه**»؛ لأنه غير تائب، ولا يجوز له أن يخبر عن نفسه بأنه تائب، وهو ليس بتائب.

- وأن يكون مقلعًا عن المعصية بقلبه؛ فالجمهور علىٰ جواز قول التائب: أتوب إلىٰ الله، وعلىٰ جواز أن يعاهد العبد ربه علىٰ ألا يعود إلىٰ المعصية أبدًا؛ فإن العزم علىٰ ذلك واجب عليه؛ فهو مخبر بما عزم عليه في الحال. ولهذا قيل: «**ما أصر من استغفر، ولو عاد في اليوم سبعين مرة**».

وفي حديث كفارة المجلس: «**أستغفرك اللهم وأتوب إليك**» [(١٢١)]. وقطع ﷺ سارقًا، ثم قال: «**استغفِرِ الله وتُبْ إليه**». فقال: أستغفر الله وأتوب إليه. فقال ﷺ: «**اللهم تُبْ عليه**». خرجه أبو داود[(١٢٢)].

استحباب الزيادة على الاستغفار والتوبة:

واستحب جماعة من السلف الزيادة علىٰ قوله: «**أستغفر الله وأتوب إليه**»:

فروي عن عمر؛ أنه سمع رجًلا يقول: أستغفر الله وأتوب إليه. فقال له: «يا

(١٢١) رواه الترمذي (٣٤٣٣) وصححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ ورواه أبو داود (٤٨٥٩) بإسناد آخر، وصححه الشيخ الألباني.

(١٢٢) حديث ضعيف: رواه أبو داود(٤٣٨٠).

حميق! قل: توبة من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا».

وسئل الأوزاعي عن الاستغفار؟ أيقول: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه؟ قال: «إن هذا لحسن، ولكن يقول: رب اغفر لي؛ حتىٰ يتم الاستغفار».

وكره جماعة من السلف قول الإنسان: وأتوب إليه، وهو قول الحنفية؛ كما حكاه عنهم الطحاوي.

وقال ربيع بن خثيم: «يكون قوله: «**وأتوب إليه**»: كذبة وذنبًا، ولكن يقول: اللهم تب عليَّ، أو يقول: اللهم إني أستغفرك؛ فتب عليَّ» وهذا قد يحمل علىٰ من لم يقلع بقلبه.

وكان بعض السلف يقول: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله توبة نصوحًا، وروي عن حذيفة رضي الله عنه؛ أنه قال: «**بحسب المرء من الكذب أن يقول: أستغفر الله، ثم يعود**».

وسمع مطرِّف رجًلا يقول: أستغفر الله وأتوب إليه. فتغيظ عليه، وقال: لعلك لا تفعل.

وظاهر هذا يدل علىٰ أنه كره أن يقول: أتوب إليه؛ لأن التوبة النصوح أن لا يعود إلىٰ الذنب أبدًا؛ فمتىٰ عاد إليه؛ كان كاذبًا في قوله: وأتوب إليه.

مع أنه ثبت عن عائشة رضي الله عنها كما رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل موته: «**سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه**». قالت: فقلت: يا رسول الله! أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده؟ قال:

«أخبرني ربي أني سأرىٰ علامة في أمتي؛ فإذا رأيتها؛ أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. وقد رأيتها»، وتلا: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ....﴾ إلىٰ آخر السورة(١٢٣).

وكذا سئل محمد بن كعب القرظي عمن عاهد الله أن لا يعود إلىٰ المعصية أبدًا؟ فقال: من أعظم منه إثمًا؟! يتألىٰ علىٰ الله أن لا ينفُذ فيه قضاؤه!

ومال إلىٰ قوله في هذا: الإمام الحافظ أبو الفرج بن الجوزي منَّا، وروي نحوه عن سفيان بن عيينة، وهو مرجوح، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

تتمة: صيغ الاستغفار:

في ذكر بعض صيغ الاستغفار، الواردة عن النبي المختار ﷺ، ما تعاقب الليل والنهار(١٢٤):

---

(١٢٣) صحيح مسلم (٢٢٠).

(١٢٤) قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: والذي ينبغي للإنسان أن يكون له أسوة حسنة في رسول الله ﷺ يكثر الاستغفار كما قال ابن عمر: (إننا نعد للنبي ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة أو أكثر: رب اغفر لي وارحمني.

منها: قوله عن النبي محمد ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال ﷺ فيما رواه عنه الأغر المزني رضي الله عنه: «إنه ليغان علىٰ قلبي» يعنىٰ يحدث له شيء: من الكتمة والغم وما أشبه ذلك «وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» يقول: أستغفر الله (في اليوم مائة مرة) هذا وهو النبي ﷺ الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فكيف بنا؟ ولكن قلوبنا قاسية ميتة لا يغان عليها بكثرة الذنوب ولا يهتم الواحد منا بما فعل، ولذلك تجد الإنسان غير مبال بمثل هذا، وقليل الاستغفار.

=

منها: ما روىٰ بلال بن يسار بن زيد؛ قال: حدثني أبي، عن جدي؛ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه؛ غفر له، وإن كان فَرَّ من الزحف**». رواه أبوداود والترمذي، وقال: حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه(١٢٥). قال الحافظ المنذري(١٢٦): إسناده جيد متصل؛ فقد ذكر البخاري في «**تاريخه الكبير**» أن بلالًا سمع من أبيه يسار، وأن يسارًا سمع من أبيه زيد مولىٰ رسول الله ﷺ.

وقد اختلف في يسار والد بلال؛ هل هو بالباء الموحدة أو هو بالياء المثناة؟ وذكر البخاري في «**تاريخه**» أنه بالموحدة.

ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود، وقال: علىٰ شرطهما؛ إلا أنه قال: يقولها ثلاثًا(١٢٧).

وروىٰ ابن السني في كتابه من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول

= وكذلك أخبر ﷺ أن من نعمة الله علىٰ العباد أنه إذا ابتلاهم بالذنوب فاستغفروا الله غفر لهم وأنه: «لو لم تذنبوا لذهب الله تعالىٰ بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالىٰ فيغفر لهم» وهذا حث علىٰ أن يستغفر الإنسان ربه ويكثر من الاستغفار، لأنه ينال بذلك درجة المستغفرين لله ﷻ.

وكذلك أخبر فيما رواه أبو داود: أن «من لزم الاستغفار، جعل الله له من كل ضيق مخرجا،ومن كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب» «من لزم الاستغفار»: يعنىٰ داوم عليه، وأكثر منه، فإنه يفرج عنه الكروب، وتوسع له الضيقات، ويوسع له في رزقه، ورزقه من حيث لا يحتسب.

والأحاديث في فضل الاستغفار والثناء علىٰ أهله والحث عليه كثيرة، فعليك - يا أخي - بكثرة الاستغفار، أكثر من قول: اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني، أستغفر الله وأتوب إليه، وما أشبه ذلك، لعلك تصادف ساعة إجابة من الله ﷻ فيغفر لك فيها... والله الموفق.

(١٢٥) رواه أبو داود (١٥١٧) والترمذي (٣٦٤٨) وصححه الشيخ الألباني.

(١٢٦) في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٤٧٠).

(١٢٧) «المستدرك» (١/ ٥١١).

الله ﷺ يقول: «**من قال بعد صلاة الفجر ثلاث مرات وبعد صلاة العصر ثلاث مرات: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه؛ كُفِّرَتْ عنه ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر**»(١٢٨).

ومنها: ما رواه البيهقي عن أنس رضي الله عنه؛ قال: كان رسول الله ﷺ في مسيره، فقال: «**استغفروا الله**». فاستغفرنا، فقال: «**أتموها سبعين مرة**»؛ يعني: فأتممناها. فقال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد ولا أمة يستغفر الله في يوم سبعين مرة؛ إلا غفر الله له سبعمائة ذنب، وقد خاب عبد أو أمة عمل في يوم أو ليلة أكثر من سبعمائة ذنب**». ورواه ابن أبي الدنيا والأصبهاني(١٢٩).

ومنها: ما رواه البيهقي عن أنس أيضًا رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ قال: «**سبحانك اللهم وبحمدك، عملت سوءًا، وظلمت نفسي؛ فتب عليَّ؛ إنك أنت التواب الرحيم**». وذكر أنه عن النبي ﷺ، ولكن شك فيه(١٣٠).

ومنها: ما في كتاب «**عمل اليوم والليلة**» للنسائي عن خباب بن الأَرَتِّ؛ قال: قلت يا رسول الله! كيف نستغفر الله؟ قال: «**قل: اللهم اغفر لنا، وارحمنا، وتب علينا؛ إنك أنت التواب الرحيم**»(١٣١).

---

(١٢٨) حديث ضعيف: رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (١٢٦).

(١٢٩) حديث ضعيف: رواه البيهقي في «الشعب» (٦٥٢) والأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (٢٠٦).

(١٣٠) حديث ضعيف: رواه البيهقي في «الشعب» (٦٧٧٣).

(١٣١) حديث ضعيف: رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٦١).

وفيه عن أبي هريرة ﷺ؛ قال: ما رأيت أحدًا أكثر أن يقول: أستغفر الله وأتوب إليه من رسول الله ﷺ [١٣٢].

ومنها: ما في «**السنن الأربعة**» عن ابن عمر ﷺ؛ قال: كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرة قول: «**رب اغفر لي، وتب عليَّ؛ إنك أنت التواب الرحيم**»[١٣٣].

ومنها: ما في «**الصحيحين**» من حديث الصِّدِّيق الذي علمه النبي ﷺ أن يقول في دبر كل صلاة، وهو: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا....**» إلخ، وتقدم[١٣٤].

ومنها: ما في «**صحيح مسلم**»[١٣٥]؛ أنه كان من آخر ما يقوله ﷺ بين التشهد والتسليم: «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني؛ أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت**».

ومنها: ما في «**الصحيحين**»[١٣٦] من حديث أبي موسىٰ الأشعري ﷺ، عن النبي ﷺ؛ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدمتُ وما أخرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أنت أعلم به مني؛ أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت علىٰ كل شيء قدير**» إلىٰ غير ذلك.

---

(١٣٢) حديث ضعيف: رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٥٤).

(١٣٣) حديث حسن: رواه أبو داود (١٥١٦) والترمذي (٣٤٣٤) وقال: حسن صحيح غريب.

(١٣٤) تقدم تخريجه.

(١٣٥) «صحيح مسلم» (٧٧١).

(١٣٦) «صحيح البخاري» (٦٣٩٩) ومسلم (٢٧١٩).

ومنها ما في «**الصحيحين**»[(١٣٧)] عن عائشة ﵂ مرفوعًا: «**اللهم اغفر لي، وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلىٰ**».

وما أحسن ما دعا به بعض الأعراب وهو متعلق بأستار الكعبة الشريفة[(١٣٨)]، وهو: «**اللهم إن استغفاري مع إصراري علىٰ معصيتك للؤم، وإن تركي الاستغفار مع علمي سعة عفوك لعجز، فلم تَحَبَّبْ إليَّ بالنعم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك؟ يا من إذا وعد وفىٰ، وإذا توعد تجاوز وعفا؛ أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين**».

مطلب

ثواب من ذكر سيد الاستغفار موقنًا

❁ قوله ﷺ: «**من قالها في النهار موقنًا بها**»:

الضمير في «**قالها**» يعود إلىٰ الدعاء المذكور، وأنثها باعتبار الكلمات أي: من قال الكلمات المذكورات من المسلمين في النهار.

وظاهر هذا إطلاق سائر أوقات النهار، وفي لفظ: «**ومن قالها حين يصبح**».

«**موقنًا بها**»؛ أي: مصدقًا بها ومعتقدًا لها؛ لكونها من كلام المعصوم الذي لا ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلا وحي يوحىٰ؛ بخلاف من لم يكن بها موقنًا؛ فلا يحصل

---

(١٣٧) البخاري (٤٤٤٠) ومسلم (٢٤٤٤).

(١٣٨) إن كان هذا الأعرابي تعلق بأستار الكعبة عبادةً وقربة، فذلك بدعة، وهذا يفعله كثير من المسلمين الحاجين والمعتمرين، تراهم يتمسحون بالكعبة ويضعون عليها أيديهم عند الدعاء، ولايشرع استلام شيء من الكعبة إلا الركنين كما هو ثابت عن رسول الله ﷺ.

له ما ذُكِر، بل إن لم يكن موقنًا بما تضمنته من التوحيد؛ فهو كافر؛ فلا يقبل له عمل، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾، ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾.

الإخلاص في ذكر سيد الاستغفار يشهد العبد جميع منازل العبودية:

❁ قوله ﷺ : «**فمات من يومه قبل أن يمسي؛ فهو من أهل الجنة**»؛ أي: لأنه افتتح نهاره بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والاعتراف بالعبودية، ومشاهدة المنة من إسداء النعم، ومطالعة عيب النفس والعمل من مقارفة المعاصي واللمم، وطلب المغفرة من الغفار، وهو قائم علىٰ قدم الذل والانكسار، وواقف علىٰ عتبة المسكنة والافتقار، وضارع بأكف الابتهال والاحتقار، يطلب الإقالة والرجوع، ويسفك الدماء والدموع، ويستمنح العفو والصفح، ويترجىٰ الدخول في السلم والصلح.

فلا جرم من كان هذا حاله وفعله ومقاله جديرًا بالعفو والغفران، والعتق من حر النيران، والدخول في حزب الرحمن، والخلود في الجنان؛ لأن الجواد يقبل توبة من أبق من العباد؛ إذ لا تضره المعاصي، ولا تنفعه الطاعات والأوراد، لا إله إلا هو.

وقتا الأوراد أول النهار وآخره:

❁ **قوله** ﷺ: «ومن قالها من الليل» وفي لفظ: «حين يمسي، وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح» وفي لفظ: «فمات من ليلته؛ دخل الجنة» وفي لفظ: «كان من أهل الجنة».

وحاصل هذا أن من قال الدعاء المذكور من أول نهاره، فمات في ذلك اليوم؛

كان من أهل الجنة، ومن قاله من أول ليلته، فمات في تلك الليلة؛ كان من أهل الجنة. والمراد أن يقوله صباحًا ومساءً طرفي النهار.

قال الإمام ابن القيم كشيخه الإمام ابن تيمية وغيرهما من علماء هذا الشأن: طرفي النهار: ما بين الصبح وطلوع الشمس، وما بين العصر والغروب... قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾.

والأصيل: قال الجوهري: هو الوقت بعد العصر إلىٰ الغروب، وجمعه أُصُل وآصال، كأنه جمع أصيلة.

قال الشاعر:

لعمري لأنت البيت أكرم بأهله وأقعد في أفنائه بالأصائل

ويجمع أيضًا علىٰ إصلان، مثل: بعير وبعران، ثم صغروا الجمع؛ فقال أصيلان، ثم أبدلوا من النون لامًا، فقالوا: أصيلال، قال الشاعر:

وقفت فيها أصيلالا أسائلها أعيت جوابًا وما بالربع من أحد

وقال تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ فالإبكار: أول النهار، والعشي: آخره.

وقال تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾.

قال الإمام ابن القيم في كتابه «الكلم الطيب»: وهذا يفسر ما جاء في الأحاديث: من قال كذا وكذا حين يصبح وحين يمسي: أن المراد قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وأن محل هذه الأذكار بعد الصبح وبعد العصر. انتهىٰ.

ولا ريب أن هذا الدعاء من أوراد الصباح والمساء، فظهر أن وقت الدعاء به بعد الصبح وقبل طلوع الشمس صباحًا، وبعد العصر وقبل غروبها مساءً، والله أعلم.

تنبيهان:

الأول: حكمة تخصيص هذا الدعاء بالصباح والمساء، وترتيب الثواب عليه كذلك: افتتاح كل من الصباح والمساء بالإقرار بالربوبية والإلهية لله سبحانه وتعالىٰ، والاعتراف بالعبودية، ومشاهدة المنة، ومطالعة الذنوب، والأمن، والاعتراف بسعة الحلم؛ إذ لم يعاجله بالنقم علىٰ عدم شكر نعمه، والتجري علىٰ معاصيه، مع ترادف المنن منه عليه، مع غناه عنه، وشدة فقر العبد إليه سبحانه وتعالىٰ؛ فيكون قد افتتح الصباح بالذكر والتوحيد، والإقرار بالعبودية، والاعتراف بالتقصير، وتمام الافتقار، وختمه بذلك؛ فيرجىٰ أن يكتب له سائر يومه طاعة وذكرًا؛ فإن من كان أول عمله طاعة، وآخره طاعة، فهو في حكم من استغرق بالطاعة ما بين العملين.

وفي حديث مرفوع: «**ما من حافظين يرفعان إلىٰ الله تعالىٰ صحيفة، فيرىٰ في أولها خيرًا وفي آخرها خيرًا؛ إلا قال الله للملائكة: أشهدكم أني قد غفرت لعبدي ما بين طرفيها**» خرجه الطبراني وغيره[١٣٩]، وهو موجود في بعض نسخ كتاب الترمذي[١٤٠].

وروىٰ الطبراني أيضًا عن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من**

(١٣٩) حديث ضعيف: رواه أبو يعلىٰ (٢٧٧٥).
(١٤٠) جامع الترمذي (٩٨١) وضعفه الشيخ الألباني.

استفتح أول نهاره بخير، وختمه بخير؛ قال الله ﷻ لملائكته: لا تكتبوا عليه ما بين ذلك من الذنوب»[(١٤١)].

قال الحافظ المنذري رَحِمَهُ اللَّهُ: إسناده حسن إن شاء الله[(١٤٢)].

وفي حديث آخر مرفوع: «**ابن آدم اذكرني من أول النهار ساعة، ومن آخر النهار ساعة؛ أغفر لك ما بين ذلك؛ إلا الكبائر، أو تتوب منها**» ذكره الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «**اللطائف**»[(١٤٣)].

قال الإمام عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: من ختم نهاره بذكر الله؛ كُتِب نهاره كله ذكرًا.

يشير إلىٰ أن الأعمال بالخواتيم؛ فإذا كان البداية والختام ذكرًا؛ فهو أولىٰ أن يكون حكم الذكر شاملًا للجميع، والله أعلم.

الثاني: قوله ﷺ: «**من قالها موقنًا بها حين يمسي، فمات من ليلته؛ دخل الجنة**» وفي رواية: «**فهو من أهل الجنة**» وعند الترمذي: «**لا يقولها أحد حين يمسي، فيأتي عليه قدره قبل أن يصبح؛ إلا وجبت له الجنة، ولا يقولها حين يصبح، فيأتي عليه قدره قبل أن يمسي؛ إلا وجبت له الجنة**».

لأنه سبحانه لا يخلف الميعاد، ولا يذهب عليك أن الله لا يجب عليه شيء؛ إلا أنه سبحانه لعظيم فضله وكرمه؛ أوجب علىٰ نفسه إيقاع ذلك؛ لوعده به.

---

(١٤١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١١٢) وقال: فيه الجراح بن يحيىٰ ولم أعرفه.

(١٤٢) في «الترغيب والترهيب» (١/ ٤٥٦).

(١٤٣) حديث ضعيف: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢١٣).

وهل المراد دخول الجنة من غير سابقة عذاب، أو ولو عُذِّب حينئذٍ؛ فالفائدة من الدعاء أن صاحبه يموت علىٰ التوحيد اللائق بسعة كرم الله تعالىٰ، والله الموفق.

تتمة

روىٰ حديث سيد الاستغفار غير مَن ذكرنا مِن الأئمة الكبار: الإمام الحافظ أبو داود[١٤٤]، وابن حبان[١٤٥]، والحاكم[١٤٦]، لكن من حديث بريدة رضي الله عنه.

وروىٰ أبو القاسم الأصبهاني وغيره من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليس منا من حلف بالأمانة، وليس منا من خان امرأ مسلمًا في أهله وخادمه، ومن قال حين يمسي وحين يصبح: اللهم إني أشهدك بأنك أنت الله، لا إله إلا أنت، وحدك، لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك، أبوء بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي؛ فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب غيرك. فإن قالها من يومه ذلك حتىٰ يصبح، فمات من يومه ذلك قبل أن يمسي؛ مات شهيدًا، وإن قالها حين يمسي، فمات من ليلته؛ مات شهيدًا**»[١٤٧].

وروىٰ الطبراني في «**الكبير**» و «**الأوسط**» واللفظ له من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، ورواه ابن أبي عاصم من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه؛ قال أبو أمامة: قال رسول الله ﷺ: «**من قال حين يصبح ثلاث مرات: اللهم لك الحمد، لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، آمنت بك مخلصًا لك ديني، إني أصبحت علىٰ عهدك ووعدك**

---

(١٤٤) «سنن أبي داود» (٥٠٧٠).
(١٤٥) ابن حبان (٢٣٥٢/ موارد).
(١٤٦) «المستدرك» (١/ ٥١٤).
(١٤٧) «الترغيب والترهيب» (٢٥٨) للأصبهاني.

ما استطعت، أتوب إليك من شر عملي، وأستغفرك لذنوبي التي لا يغفرها إلا أنت؛ فإن مات في ذلك اليوم؛ دخل الجنة، وإن قالها حين يمسي: اللهم لك الحمد، لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، آمنت بك مخلصًا لك ديني، إني أمسيت علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أتوب إليك من شر عملي، وأستغفرك لذنوبي التي لا يغفرها إلا أنت؛ فمات من تلك الليلة؛ دخل الجنة»[١٤٨].

قال: ثم كان رسول الله ﷺ يحلف ما لا يحلف علىٰ غيره؛ يقول: «**والله؛ ما قالها عبد في يوم، فيموت في ذلك اليوم؛ إلا دخل الجنة، وإن قالها حين يمسي، فتوفي في تلك الليلة؛ دخل الجنة**».

ولفظ حديث معاذ رضي الله عنه: سمع النبي ﷺ يحلف ثلاث مرات لا يستثني أنه: «**ما من عبد يقول هؤلاء الكلمات بعد صلاة الصبح، فيموت من يومه؛ إلا دخل الجنة، وإن قالها حين يمسي، فمات من ليلته؛ دخل الجنة**». فذكر باختصار؛ إلا أنه قال: «**أتوب إليك من سيئ عملي**»، وهو أقرب من قوله: «**من شر عملي**»، لعله تصحيف.

قاله الحافظ المنذري[١٤٩].

وذكر الحافظ المنذري المذكور رحمه الله كل واحد من حديث حذيفة وأبي أمامة ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم بصيغة التمريض، وهي «رُوي»، وهي في اصطلاحه في كتابه «**الترغيب والترهيب**» لما لا يتطرق إليه احتمال التحسين، والله سبحانه أعلم.

---

(١٤٨) «المعجم الكبير» (٨/ ١٩٦)، و«مجمع الزوائد» (١٠/ ١١٤).

(١٤٩) الترغيب والترهيب ١/ ٤٥٧.

الخاتمة

وهذا ما أردت إيراده علىٰ حديث «**سيد الاستغفار**» من الفوائد النفيسة، والعوائد الأنيسة، مع عدم وقوفي علىٰ من تقدمني علىٰ شرحه؛ إلا في الكتب المجملة؛ فغاية ما رأيت من شرحه لا يبلغ ورقة واحدة.

وقد جمعتُ لك هذه الجمعية من عدة كتب، لعلك لو بذلت غايته؛ لا يمكنك الوقوف علىٰ جميعها، مع ما زدت من إيضاح كلامهم وتنقيح عباراتهم، مما يشفي السقام، ويكفي لذي الإلمام، ويروي من الأوام، ويبري من الآلام؛ فظن به وظن بي خيرًا؛ فلك غنمه وعليَّ غرمه، ولك صفوه وعليَّ هفوه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم؛ عدد ما كان، وعدد ما يكون، وعدد ما هو كائن إلىٰ يوم الدين.

والحمد لله رب العالمين

نجز تسويدها نهار الجمعة لثمان خلت من جمادىٰ الثانية سنة ألف ومئة وستين من الهجرة النبوية، علىٰ صاحبها الصلاة والسلام.

علَّقه الفقير لربه، الخائف وصمة ذنبه: محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي، عُفي عنه؛ آمين[(١٥٠)].

---

(١٥٠) انتهيت من قراءته والتعليق عليه مساء يوم الأحد (٢٠) ربيع الأول سنة (١٤٢٨ هـ)، والله المسئول أن يتقبل ذلك بقبول حسن، وأن يتجاوز عن زللي ووهمي، والحمد لله رب العالمين.

هذا الكتاب منشور في